

ليالي البانجو

رواية

يوسف أبو ريّة

ليالي الباتجو

الطبعة الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ١٤٢٨٢/٢٠٠٩
ISBN 977-09-2048-7

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

تصميم الغلاف للفنان عمرو الكفراوي

يوسف أبو ريّة



رواية

دار الشروق

(١)

قبل العثور على الورقة التي تعلن عن رحيلها في اليوم التالي قالت لأمها: أنا حامل، ورغم ذلك لا أطيق البقاء معه. كانت تسمعها وهي مطرقة، لا حيلة لها. هادئة، ساكنة لا تملك إجابة، فهي لم ترض عنه أبدًا، ولكن الأب كان له رأي حاسم، لا راد له.

في حيرتها، وتعثرها أجابتها بسؤال الخشية والتردد: ولكن ماذا يقول أبوك. وماذا يقول الناس فلم ينقض على زفافك أكثر من ثلاثة شهور؟

ـ حاولت يا أمي التعايش معه، وعجزت. لا غبار عليه ولكني لا أطيقه.

حاولت الأم الانشغال بإعداد العشاء لها. ولكن البنت لحقت بها قائلة: لا تتعبي نفسك. لا رغبة لي في الطعام، سأزور صديقة لي وأعود في الحال. فعادت إلى مقعدها مستسلمة، تفكر بعمق في كيفية استقبال زوجها لهذا الخبر وهو على وشك القدوم.

وضعت البنت العباءة السوداء على جسدها، ولفت وجهها بطرحة

خفيفة شفافة تستر الشعر وتدور حول الوجه الذي شع نوره في نصوع، ردت باب الشقة وراءها، وهبطت الدرج بسرعة دون مراعاة لجنينها المعلق في أحشائها، فكم حاولت إسقاطه، بطرق متنوعة، ولكنه تشبث بالجدار الحي للرحم يمتص منه دم الحياة، اقتحمت ظلام الشارع الهادئ. متعثرة في مشيتها حتى خرجت إلى نور الشارع الكبير تطل شرفات ونوافذ أبراجه العالية، وتسقط أنواره على العمارات المواجهة وتضج أضواء النيون في محلات ازدحمت بزبائن يقلبون النظر في واجهات المحلات الكثيرة.

اقتحمت الأجساد الشابة التي تتسكع في دوائر النور يحدقون في أجساد الفتيات والنسوة اللائي يصعدن ويهبطن على الدرجات القليلة أمام طوار المحلات، التفتت يمينًا ويسارًا لتراعي السيارات المارة، والكثير من عربات (التوك توك) التي تناسلت حتى ضاقت بها شوارع البلدة لأنها لم تتهيأ لمثل هذه العربات التي هجرت بلادها في شرق آسيا إلى قرى ومدن لم تتسع أزقتها وشوارعها لغير الحمار والجمل وعربات الكارو.

رأته يقف بين صحبه أعلى الطوار، فكشفت جانبًا من وجهها ليتعرف عليها، وأخيرًا لمحها، فأشار إليها، سارت عكس الاتجاه الذي قدمت منه. دنت من خطوه القريب، وحين انسحب نور المحلات، ودخلت في الظلمة الخفيفة، عند نهاية الشارع، شعرت بأنفاسه اللاهثة، قال: انتظري في مكاننا المعهود.

صعدت الشارع المتدرج، نحو قضبان السكة الحديد، ها هنا يثقل الظلام، ويقل مرور السابلة. مرقت نحو بيت ناظر المحطة المهجور،

أسواره تهرأت وتساقطت، وكثرت فيها الثغرات، وبابه الخشبي عليه جنزير وقفل، لم تحركها يد، منذ أهملت هيئة السكة الحديد سكنى النظار مع منتصف الثمانينيات، وتجردت أغصان الأشجار التي كانت مورقة يومًا، تنشر ظلًّا كثيفًا حول المنزل المكون من طابقين، كانت تسمع صوت تفجر الزلط تحت نعلها العريض، وتحذر المرور فوق القضبان السوداء التي تعكس بقعًا من نور خفي المصدر. ثم حاذرت أعمدة التحويلة المعقدة حتى وصلت إلى الرصيف الآخر. الرصيف المُعد للانتظار فحسب، بعيدًا عن مكتب الناظر والمعاون، وقاطع التذاكر، ومسجد المحطة الذي أنشئ على عجل، ترتفع على سطحه مئذنة طريفة المشهد ذات مكونات ساذجة هي عبارة عن مواسير فخارية وطست، وقمع من صفيح، وهلال خشبي عُلق على جانب منه مكبر صوت، لا يكبِّر شيئا بل يعيد الصوت المكتوم إلى الداخل لا إلى الخارج لا تمنع نفسها من الابتسام كلما وقعت عيناها على مشهده «إنها فضيحة يراها المسافر الغريب، فيعي مستوى البلدة التي يمر عليها القطار» تنهدت وهي تمنع كركعة انفلتت صاخبة «على العموم لم يؤسس لأهل البلد، وإنما هو مسجد لعابر السبيل».

اختارت المقعد الأوسط، خشب قديم، تتعدد فلقاتها، التي تساقط بعضها على الجانبين.

«إنه الشيء الوحيد الباقي من آثار الماضي» فالمظلة التي أُسست في زمن الاحتلال، ذات القرميد والتي تميل جوانبها لتحجب الشمس، وتوفر الظل الكافي للمنتظرين، رفعتها الهيئة، وأسست مكانها مظلة من صاج له تدرجات عبيطة، تسخن مع حرارة الشمس وتوفر في الهجيرة

صهدًا، تسيح له رأس المسافر. ولكنها في هذه الليلة، تنشقت نسمة رائعة، ظلت تحوم حول بدنها المبلل بالعرق، فكشفت غطاء وجهها لتستقبل المزيد من نسائم الخريف.

وارتاحت نفسها للظل والظلمة والهواء حولها.

وازدادت اطمئنانًا حين رأت شبحه القادم من جهة بيت الناظر. لم يكن وجهه واضحًا بعد، كان مجرد ظل يتحرك، ولكنها تميز خطوه فهو يمشي بثقل، دون عجلة، يحركها خوف أو اضطراب، يخطو بثقة يحرك ذراعيه أمامه، حول جسده الممتلئ قليلًا، وحين يحتار في وقفته معها، يجعل يديه معلقتين في فتحتي السروال الجينز السميك.

جلس إلى جوارها، دون أن يلقي تحية المساء وكأنه لم يفارقها، أو نقلت إلى بيت آخر، وحرما من اللقاء مدة الإقامة في بيت زوجها، مدد ساقيه أمامه، مصدرًا (الكوتشي) الأبيض وينفض من صدره نحنحات هادئة، تلفح جانبًا من صدغها الأيمن، بعد قليل، رفع كفه ليضعها على كفها المضيئة خارج كم العباءة السابغة. وجعل عينيه في عينيها المحدقتين إليه بشوق ثم أطلت بسمة مترددة من جانب شفتيه الغليظتين، قال بهدوء وحرقة أشعلها شوق وعتاب، أراد أن يخفيه، وألا يكون هو موضع هذه الجلسة.

- إزيك؟

أراد أن يمد أصابع يده المنتفضة إلى ظاهر كفها النائمة على فخذها إلا أن الإضاءة الساقطة عليهما من الرصيف الآخر لم تسمح له، فالركاب مكدسون على الكراسي في الجانب الآخر، أسفل السطح المُقام على

أعمدة ترفع مكاتب إدارة المحطة، عاد إلى صمته، وهي ظلت من حين لآخر ترفع عينيها إليه بتردد. أخيرًا أدنى فمه من القرط الخفيف المعلق بأذنها وسألها عن حالها.

ـ قطران.

إلى هذا الحد؟

ـ أقيم ـ كما تعلم ـ في قرية لم أتهيأ للعيش بها، في شقة مخنوقة، لا منفذ لها، يطل بابها على بيت العائلة، التي لا تتحرج من اقتحامي في كل حين، وهو لا يزجرهم، ولا يعترض كأن هذا حق من حقوقهم.

وحين أبدي سخطًا من هذا، يقول ليس بإمكاني. ثم إنه يأمرني بالذهاب ـ كل صباح ـ إلى بيت العائلة لمعاونة أمه في شئون البيت، وهذه اللئيمة التي تُكن الاحتقار لبنات المدن لا تكف عن إصدار الأوامر. اغسلي واكنسي واطبخي، وهي جالسة في ركن من البيت تتابع عملي، ولا يعجبها العَجَب، فتتدخل في كل صغيرة وكبيرة، وتقول ساخطة: أين تعلمت هذا؟

يعود من عمله، فيجد كل شيء معدًّا في بيت أبيه نأكل معًا، ونعود إلى شقتنا ليلًا، فيجدها معدة ونظيفة، ساكنة.

يفرش سجادة الصلاة، ويصلي العشاء في جلبابه الأبيض المزهر، بعد أن أصب عليه ماء الوضوء. يبل مقدم رأسه، ويتخلل أصابعه الجافة شعيرات ذقنه الطويلة، يصلي السُّنة القبلية ركعتين والعشاء أربع ركعات، وينهي صلاته بالسُّنة البعدية ركعتين ويرفع كفيه هامسًا بدعاء، لا أسمع منه كلمة، ثم يمسح جانب وجهه، وينثر الماء عن شعيرات

الذقن الشعثاء، ويسحب مسبحته من جيب جلبابه، يقضي مدة في تسابيح يرددها لسانه بآلية، بعدها يضع أصبعين في فتحتي الأنف، لينكت مخاطًا، إلى جدار الغرفة، ثم يطلق أكثر من بصقة لزجة، ويجفف الفم والأنف معًا بكم الجلباب.

وأراه يسحب السجادة المرسوم عليها الحرم الشريف وعليها الكثير من المآذن يطبقها بحرص ويركنها جانبًا، وهو ينفض نفثة من صدره .

ـ توكلت على الله.

يصرخ السرير تحت ثقله، وهو يدنو مني، أحاول أن أكتم أنفاسي حتى لا أستنشق رائحة المسك التي تبعث أمام ناظري أشباحًا مرعبة، يضغط على الزر فيسود الظلام، يستدير نحوي، أحاول الهرب منه بحجج معادة لا يقتنع بها أبدًا، وأجدني كفرخ منزوع الريش، ألهث في كتمان لا يلحظه وأسجن الصرخات الحبيسة في رئتي. ولا يحفل. ويتمكن من السيطرة على أشلائي المبعثرة، وأجدني شبحًا عاريًا أرى تكويناته عبر النور الساقط من خصاص نافذة الشارع، يبرك على صدري فاردًا ذراعيَّ، ويدخلني، وتختلط أنفاسه بأزيز السرير حين ينتهي من الأمر كما أراده بالضبط، أنقلب إلى الجهة الأخرى، حتى أصل إلى الطرف البعيد من الفراش وأبكي بكاء لا صوت له، تنهال فيه دموعي على صدري لتحفر مجراه بعنف، كأنه جدول من نار خُلق بفعل المكونات الملتهبة التي ينفثها باطن بركان شرير، يحرق، ويشتعل دون سابق إنذار.

يحدث كل هذا على صوت غطيطه، وتلمظات فمه التي تعبر عن بهجة الإفراغ من مائه. تدفقها أوتار غريزته، غريزة بلا عاطفة، مجرد ارتياح جسدي، لألم يشتد عليه أثناء جلوسه على مكتبه، وعند انشغاله

بمشهد ردف مثير لزميلة تعمل معه، أو امرأة يسعى وراءها في الشارع عند عودته، كل هذا يفعله للتحضير لهذه اللحظة، لا يميل إلى القُبل، ولا إلى الملامسة التي تهيئ للاستجابة له. ما أنا إلا ثغرة للإيلاج تستقبل نطفته.

لذا حين أخبرته بالحمل، فرك شعيرات ذقنه كأن مجهوده الليلي لم يذهب هباءً، وكأنه تأكيد لفحولته البهيمية، وحين نقل الخبر إلى أمه أطلقت زغرودة، لا أظنها بسبب امتداد النسل وإنما لتأكيد ذكورة ولدها.

ها هي قريتهم تعلم أنها قد أنجبت رجلًا حقيقيًّا، ورغم ذلك لم ترحمها من أعمال البيت، اطلعي، انزلي، هاتي، حطي، اطبخي، اغسلي، اكنسي، خادمة من بنات المدينة تعمل لديهم، هم الذين عانوا ضنك العيش وشظف الحياة.

وبعد الزغرودة المهللة، سالت دمعة من عينيها وها هي تقول له: أين عين أبيك؛ ليعلم هذا الخبر؟ إنه الآن سعيد في قبره، وفي الصباح الباكر سأذهب إلى تربته، مهنئة، ثم التفتت إليّ، الأمر لا يعنيني، الحمل الذي أخبره بها ولدها، من فعله وحده: اطلعي السطح وارمي لي ربطة من حطب القطن، ثم عودي إلى حجرة الخزين لتحضري قفة الدقيق، ستنخليه، حتى أقدح الفرن. أم أنك ستتصنعين وتقولين إنك لا تجيدين صُنع القرص، للرحمة.

ـ اؤمر يا سيد.

ـ افعلي ما طلبت يا مها .. ربما خاطبتها في غذاء اليوم.

وذهب إلى عمله منتشيًا، «وهي تبحث عن مكان، لا تقع عليه عين، لتستجيب للرغبة في البكاء، لا تستطيع أن تطلق لنفسها العنان حتى صعدت إلى السطح، ركنت ظهرها على صندوق الحَب. بينما أصيح مستنجدة بك».

ـ أين أنت يا خالد.

تحملت كل هذا من أجلك، كنت أدور في أماكن لهونا، ربت على كتفها خلسة حتى لا يلحظه أحد من ركاب الرصيف المقابل: سامحيني.

ولمح في خديها حبتين من الدمع، فتشجع ليمد يده نحوها، ليمسحها؛ بمنديل ورقي أخرجه من جيب القميص.

ـ سنعوض ما فاتنا.

ـ كيف؟

سنتدبر أمرنا. دعيني أفكر بهدوء. وأرجوك لا أحب أن أرى دموعك الغالية.

وعاد إلى الصمت يتأمل شخصًا مرق أمامها وهو يحدق في ظلهما، انكمشا قليلًا، وبعفوية تزحزح قليلًا، حتى لا يثير الشك. قطع جرس (البلوك) الصمت، التفت نحوه فسقطت عيونهما على عمود (السيمافور) وهو يهبط إلى أسفل، ليبدل اللون الأحمر إلى الأخضر، ثم شاهدا (المحولجي) في النور الخافت للبلوك، وهو يشد يد التحويلة إلى الوراء، مال بكامل جسده قابضًا على اليد الحديدية. ثم سمعا القضيبين وهما يبدلان مكانهما، وكان مساعد المحولجي قد هبط الدرجات الخشبية، ليمد الجنزير على الجانبين ليمنع مرور السيارات، والمارة وتكدس الكثير

من عربات (التوك توك) والعجلات الهوائية والسيارات الملاكي، والعجلات، ولكن المارة كانوا يقطعون الشريطين بلا انقطاع، فالقطار لم يزل بعيدًا، يشاهدون نوره، عند مدخل البلدة، يزحف ببطء نحو المحطة، فلم تزل المدة كافية، دون التعرض للخطر.

والديزل يطلق صافرة قوية، ترتعش لها حوائط البيوت، وقلوب البشر، وينتفض على صرخاته قلوب الأطفال النائمين.

وأخيرًا، دخل القطار بين الرصيفين، تنقبض رئتاه، من كثرة ما جرى بين المدن، وارتاح في وقفته عند أول الرصيف في الجهة الأخرى، وبدت أجساد شاحبة في ظلمة العربات.

هبط القادمون من القطار، وصعد ـ بدلًا منهم ـ المرتقبون، دق جرس الرصيف والديزل لم يستجب لدقات المعاون، كان لا يريد القيام، فلم يأخذ حقه في الراحة بعد، وتكررت الدقات، فانطلقت صافرته شاخطة، متبرمة تجيبه «حاضر، سأغادر في الحال».

وسار بثقله، كثعبان شبع، امتلأت أحشاؤه بفريسة دسمة، ثم زاد من سرعته، وتتابعت النوافذ تطل منها رءوس مبتورة، لركاب ساكنين اضطروا للسفر، لا للمتعة بل للضرورة.

اتخذ طريقه نحو بيت الناظر القديم، فأثار الكثير من الغبار الذي حلق في سماء المحطة، حتى غطى الوجهين الحزينين القابعين على الكرسي الوحيد على الرصيف المظلم والخالي من الركاب، واختفى القطار تمامًا. عادت أصوات البلدة إلى حالها، كلاكس سيارة، صرخة (التوك توك) تنطلق من جنباته أغان صاخبة، ركيكة الكلمات واللحن، لتعلن عن

حضور أكبر من حجمهم، وأصوات مذياع لمحل خلف السور الحجري الأبيض يردد قرآنًا التقط من صوت قارئ، أمام فتحة مقبرة، قرآن ينأى عن الأصوات الجميلة للمقرئين المصريين الذين أوسعوا الساحة لأصوات واردة من بلاد بدوية، كئيبة، زحفت مع الهالة الرخيصة التي تمجد القراءة لمجرد سماعها لأول مرة في جنبات الحرم النبوي الشريف. اختلط بالبلادة ضجيج قطار. طال أكثر مما ينبغي، فوجهت إليه عينين برَّاقتين انسحب عنهما حياؤهما للتو.

ـ عندك حل، فأنت لم تعان وحدك، وأنا منذ اضُّطررت للزواج بآخر، في حيرة أسير متخبطة حزينة.

ـ عشت بدونك غربة قاتلة وأنا مقيم بين أهلي، وفي نفس البلدة التي هجرتها.

ـ عندك حل؟

ـ سنصل إلى حل، ولا تتعجلي.

ـ أنا لا أستطيع العودة إلى هناك مرة أخرى.

ـ وهل أعلنت رغبتك هذه إلى أهلك؟

ـ لم يعلم حتى الآن غير أمي، وهي متعاطفة، ولكنها ترى أن الحمل سيعقِّد المشكلة.

كان يحدق في ضوء لمبة معلقة على رصيف إدارة المحطة. سرح فكره في أيامه التي قضاها بدونها، وهي ظلت منكسة رأسها إلى الأرض، صامتة، تنتظر ما سيطرحه.

لم تكن برأسه فكرة محددة، وهي تعاني حيرتها، العودة إلى الزوج مستحيلة، وطلب الطلاق صعب، والتخلص من الجنين جرم لا يغتفر، والارتباط بالحبيب جناية.

ترددت نفس الأفكار ـ تقريبًا ـ في عقله، أبدى عجزه بنبضات صدره المشحون بآلام الشوق والاحتياج إليها حقبة طويلة مكثاها معًا، بدآها معًا، في المدرسة المشتركة وبسبب التباين في المستوى الدراسي، افترقت فصولهما، فقد التحقت بالدراسة المتوسطة بينما ظل تفوقه في تصاعد، حتى أنهى التعليم الجامعي، كما أن التفاوت الطبقي لم يسمح بالتقدم إليها، فالأب ينتمي إلى كبار الملاك، له قرية تحمل اسمه في إحدى دوائر المركز، وهي ابنة موظف صغير لا يملك غير راتبه الذي يستر هيبته كواحد من الشريحة الدنيا للطبقة الوسطى، كل هذا بحسابات الحقبة الناصرية بمكوناتها التي تمنح للطبقتين قدرًا من التوازن، الأول بما يملكه كحد أقصى للملكية التي حددتها قوانين الإصلاح التي أطاحت بالأرستقراطية القديمة، والآخر بمكانة (الأفندي) الذي يعيش بضمان راتب آمن.

كل هذا أمحى الأمل في الارتباط، وإن كانت للقلوب التي لا تقر التفاوت لغة أخرى وبحديثها الخفي، استمرا في لقائهما، كلما أتيحت الفرصة لذلك.

أتاحت لها فُرص اللقاء السري قدرًا من الذكاء، على ذكائها الفطري، هي التي تضع الخطط، وهي التي تسعى إليها ليلًا ـ في الغالب ـ ونهارًا، إذا أمنت إلى اختفاء الأم، وأثناء ذهاب الأب إلى العمل، أما هو فقد اعتاد الكسل، لا يبادر، تنتظر نداءه، فتلبي بسهولة ويسر طلبه وبيته الذي يرتفع طابقين، والحديقة المهجورة، سمحا لهما بالعثور على مكان ملائم.

الأم لا تفارق بيتها إلا قليلًا، لا تكف عن إصدار الأوامر للخادمة الباقية التي تعمل بحوزتها عجوز متهالكة، تتحرك ببطء ووهن، وبالقدر الذي تسمح به طاقتها المحدودة، وكانت يومًا تدير أعمال البيت بعدد كبير من الخادمات، للبوابة حارس، وللحديقة بستاني، وللمطبخ طاهية، وللمائدة سفرجي، غير المزارعين من أهل العزبة الذين يجتمعون في الشرفة الرحبة، يتحلقون حول الأب، المهيب الطلعة، له شعر ناصع البياض وسمنة يَبُك منها الدم ورثها عن أسلاف، يقال إن لهم عرقًا تركيًا ينم عن الأصول الأولى. يقصون على الرجل، ما وقع في يومهم، وما سيعرض لهم في الأيام التالية، ويستجيب لاحتياجاتهم ويمده البعض بحسابات المحصول. كل هذا قبل رحيله الذي اكتشفه خالد بنفسه حين خرج من الباب المعشق بالحديد والزجاج السميك، الذي يحجز عنهم بضباب الضوء الساقط على ثنايا الأغصان اليانعة دومًا، أراد أن يطالبه بمصروف يتيح له السهر مع الأصدقاء، وكان النهار يدنو من نهايته، والمغرب قد أزف، والشارع الضاج بالناس والسيارات التي تصخب مواتيرها، وأصوات الماشية العائدة مع أصحابها من حقول تنتشر على حدود البلدة، كل هذا الخليط من الأصوات، يُسمع، ولا يُرى.

دنا منه ليجالسه لبعض الوقت، كان الأب يسند رأسه باتجاه النافذة المرتفعة، رافعًا ساقًا على ساق، وذراعاه مفرودتان إلى جواره، فوق شلتة رقيقة، تحتها سجادة، لا ترفعانه كثيرا عن نعليه المخلوعين ولا تجعلانه في غير تماس مع الأرض.

ـ يا أبي.

وافتقد النداء إلى إجابة.

«رأيتني أسير بين شعلة من النار ترتفع إلى عنان السماء، وأسوار محكمة يتردد في جنباتها صوت المعاول تضرب في الحجر الأبيض القوي، انقبض قلبي للأصوات وأنست نفسي بحضور النار التي لا انطفاء لها»

إن احترام الأب لا يجعله يحادثه بصوت مرتفع، فأعاد النداء، ولم يسمع ردًّا ولمس كف يده المفرودة بكاملها، ففاجأته برودته التي لم يعتد عليها، كلما مال ليقبلها. فأدرك الفجيعة، في الحال، صرخ من هول ما حدث. وخرجت الأم والخادمة العجوز ليستطلعا ما الواقعة.

صحيح إن رحيل الأب أمر لا يمكن تحمله في أوانه، ولكن الزمن يقهر الذكرى، والنسيان يترسب بهدوء في بؤرة القلب.

ورث القليل، لأن الأب مع زمن الانفتاح الذي أهلك هذه الطبقة، فقدت صدارتها، ونهضت بطبقة جديدة، تمتلك ثروات أخرى، والرجل كان يعتز بما يملك. لم يفرط في شبر من الأرض. قالوا له تخلص من الأرض، لم تعد مُجدية.

ـ ثم ماذا بعد؟

ـ أقم العمارات التي تجمع منها إيجارات مرتفعة.

ـ وماذا بعد؟

ـ أو اشتر سيارات للتأجير.

يرد بحسم، متحسرا خيبة من يقترح عليه، متهمًا أبناءه بقلة الخبرة:

ـ هل علمتكم الدراسة الجهل، وضعف المعرفة؟

ـ إننا ندرك ما سيحدث في الأيام المقبلة.

ـ العمارة يا أفندية تنهار على رءوس العباد، والسيارات معرضة للحوادث التي تهلكها، أما الأرض فثابتة.

فقاموا من حوله، وهم ينفضون أياديهم في الهواء، ويرددون في سرهم: لا فائدة، إنه ينتمي لجيله بحق، عقول قديمة، غير ملمة بوقائع التاريخ، ويعجزون عن فهم المستقبل.

وصدقت نبوءتهم، انهارت ثروة الأب، وخسرت الأرض قيمتها السابقة، وقامت ثروات، وطبقات لا يدري الأب سببًا لصعودها المبالغ فيه، ولم يملك غير أن يضرب كفًّا بكف كلما اختلى بنفسه، ويردد همسًا:

ـ القوالب نامت والأنصاص قامت.

ـ ألم تصل بعد إلى حل لمشكلتنا يا خالد؟

ـ لا مشكلة ولا يحزنون.

إنني أفكر الآن بجدية، لننهي الأمر دون مواجهة مع الآخرين.

قالت له لائمة: كنت أجد الحلول السريعة للقاءاتنا، تأمرني فأستجيب دون تردد.

ـ نلتقي الليلة فأنا بحاجة إليك.

ـ ستجدني أمامك في الوقت الذي تحدده بنفسك.

ـ كنا صغارا، ولا نشعر برقيب يتبع خطواتنا.

ـ المهم لا عودة إليه، والإقامة في بيت الأب مستحيلة، والارتباط بك هو أسهل الحلول.

ـ والولد؟

ـ سنتخلص منه.

ـ لقد حاولت؟

ـ إذا تأكدت من رغبتك، سأكون أكثر شجاعة في الانتهاء منه، فأنا لا أريد شيئًا يذكرني به.

قطار آخر أقبل من الجهة الشمالية، يجر عجلاته الصدئة، وتسيل القذارة على جانبيه، لا زجاج لنوافذه، وتملأ أنوف ركابه روائح المراحيض الخالية من الماء، حين يقف بين الرصيفين تتدفق قطرات البول بين شريطيه، يبدأ مشواره من المنصورة البعيدة، بعد أذان العصر بقليل ويصل القاهرة بعد منتصف الليل، وتطلق عليه المصلحة اسم قطار الشرق.

ركابه من فقراء الدلتا أدنى طبقيًّا من هؤلاء القادمين من الجنوب، نصفهم من الموظفين الذين يغادرون بلداتهم كل صباح، ويصلون مع أذان المغرب، أما قطار الشمال فركابه القليلون غالبيتهم من الفلاحين والفلاحات الذين ينقلون خضراوات الأرض التي تنبت في المساحات المحدودة في القرى المتناثرة خارج حدود البلدة التي تشكل مركزًا هو عبارة عن دائرة تنداح منها العِزَب، والقرى، تمتد شرايين الاتصال بمركزهم عبر مماش زراعية ضيقة، تخترق الحقول وإذا اتسع الطريق، فإنه يوازي ترعة أو مصرفا، أو نهرا صغيرا، ترتفع على جانبيه أشجار ذات سيقان تعصي على المتسلق، وتنتهي بفروع نحيلة لها أوراق تشبه

خيوطا خضراء تسمح بنفاذ الريح صيفًا وشتاءً، فتطلق أصواتًا أشبه بنُواح الجن، أصوات تخصها، فلا هي بالحفيف ولا هي بهفهفة الأوراق اليانعة لأشجار التوت والكافور.

هبط إلى الرصيف ركاب، لا ينتمون لبلدتهم، يرفعون أجولة فارغة، والنسوة منهم يحملن قُففًا خفيفة، بها شيء من فاكهة السوق ينتظرها الأولاد بلهفة.

وانطلق في أجواء المحطة الصغيرة رنين الجرس، تضرب أطرافه، يد كسلى، تعاني وخم التكرار، ومال ضوء (السيمافور) جهة البلوك، ودق جرس آخر يحذر المنتظرين عند البوابة، فصرخ القطار صرخة عجوز يجاهد مع مرض عضال نال كل شلو من بدنه المتهالك. وجر ثقله نحو الجنوب، وهو يحسب الخطوات والوقت الذي يسقطه مجبرًا، بفعل آلية، يعجزه السيطرة عليها.

حين هبط غباره، وسكنت أكياس البلاستيك الهائجة، وأزيلت من فضاء الرصيفين رائحته الكريهة، عاد نور المحطة تحت مظلة المكاتب إلى صفرته الشحيحة، لتكشف أشباحًا أخرى موزعة على الكراسي الخشبية تحدق في الوجوه العابرة لأهل البلدة.

وكان خالد يهمس في أذنها ليقول لها شيئًا، لم تلتقطه، ولم يخرج عن الهمس لها ودنو أنفه من وجهها إلا بالرائحة الأليفة. التي تعيده للقاءاتهما السابقة، بيد أن ضجيج القطار أدى إلى تلاشي أصوات الوجود كلها، واكتفى باختلاس لمسة من كفها، وقُبلة خاطفة، ربما لم يشهدها غير السائق.

انقشع القطار إذن، وزال صدؤه من المكان، فأعاد يده إلى موضعها، ليضغط ما بين فخذيه، وهي لم تكن مقبلة عليه كسابق عهدها، عقلها مشغول بالأيام المقبلة، وبمصيرها الغامض، بالتعلق به، وانفلاتها من حياة زوجية بغيضة، مكدسة بظلام القرى، وبجوار حماة لا تميل للغريبات، وتؤمن بالارتباط بمن تعرف من ناس القرية، ومن الأقارب الذين تلم بأصلهم وفصلهم. كما انشغل فكرها برأي الأب، هل سيلبي رغبتي؟ أم أنه سيصر على العودة؟

أنا موضع أسراره، يضمني في حضنه بأحاسيس تتجاوز الأبوية، وتلمس منه عشقًا خفيفًا بالتواطؤ من كليهما.

ويبوح لها بما يخفيه عن الأم، «وسره في بير» وقبل زواجها بشهور، أخذها بحجة أنه يود التردد على المحلات ليبتاع أشياء تصلح لبيت الزوجية، وقال لها ما أفجعها، إشفاقًا على الأم الغافلة، قال لها، دون أن يرفع عينيه إلى وجهها، مدعيًا الانشغال بالنظر إلى الفترينات.

ـ أريد أن أعرفك بزميلة، تعلق بها قلبي.

ـ ماذا تقول يا أبي؟

ـ إن حقوق الوالدة مصونة، ولن أفرط فيها أبدًا.

ـ وما الضرورة، طالما لم تشكُ منها أبدًا.

ـ إن للقلب شئونًا، ستتعرفين عليها بعد انقضاء حياة زوجية طويلة.

وفي تلك اللحظة بالذات، في صمتها، وانكفائها على أفكارها، تنتظر من خالد ردًّا ما، ينقذها من حياتها التي لم ترغبها أبدًا، رفعت

رأسها لتحدق في عينيه مباشرة، لتبدي له لومًا، وتصفه بقلة الحيلة، وافتقاد الشجاعة رأت ظل أبيها يقتحم أشباح الرصيف، فهتفت بصوت مكتوم.

- أبي.

وانتفض الحبيب بجبن.

وافترقا في جهتين متعاكستين.

* * *

(٢)

ليسا برجين بالمعنى المعروف في المدن الكبيرة، أو كما شُهد من برجي نيويورك عند سقوطهما، اشترى اثنان من محدثي النعمة أراض من الملاك القدامى. كانت يومًا بيت المأمور بحديقته الواسعة، والثانية لتاجر الأخشاب الذي رحل منذ سنوات قليلة، فباع الورثة المخزن الكبير. والمباني في العهد القديم أُسست بطوب قوي، لا محارة لها، ترتفع نوافذها العالية لمسافة مترين، ولها شرفات، وڤراندة تتضوع رائحة عطرها في كل آن، وهناك كانت العين تلتقط أزهار الفل والياسمين. تسمق أغصانه لتحيط بالمدخل وتتعانق مع أغصان أخرى للوف، تسور جوانبها أشجار العبل بظلها الخفيف، وحفيفها الذي يشابه أشباح الليل.

هبط خالد المزلقان الآخر لمحطة السكة الحديد، حيث تتابع عن يمينه عربات قطار البضائع الذي يمكث لفترات طويلة، مرق بين عربات (التوك التوك) التي تتحرك في كل مكان كبعوض منتشر، على يساره كوافير «ڤينوس» وترزي «أورچنال»، وفرع بنك إسكندرية، وعن يمينه صمد بيت تاجر الأنتيكا، ومقهى «زيزو».

دخل في الزحام حيث يجتمع الشبان؛ ليلاحقوا الفتيات المتعلمات، المترددات على المحلات المنتشرة أسفل البرجين، أو الصاعدات الدرجات إلى محل شاسع يسمونه (المول) التحق هناك بأصدقائه الذين غادرهم قبل قدوم مها إليه.

ـ مكتوبة لك يا عم.

فابتسم بوجهه المشرق.

ـ نلتها عذراء، وها هي تعود إليك زوجة.

ـ ولم يعقب على كلامهم، اكتفى بزهوه في مواجهتهم.

كانوا يحدقون بعيون تنز شهوة في سراويل الچينز، ويغرسون النظرات في نهود طفحت تحت ضغط (البديهات) المجسمة لكل فتنة، أو يتابعون الفتيات اللائي يرتدين العباءات أو الإسدال بل كانوا يخضعون لفتنة العيون المكحلة التي تختفي تحت النقاب.

ـ انظر إلى هذا (الچينز) البديع.

ـ أنا أسميه الجنس.

ـ سمه ما شئت المهم ما يحتويه من أفخاذ قوية مجسدة بين قماشه السميك.

ـ وسأل عن عاطف أبو الخير، فقالوا إنه ينتظرنا في شقته.

ـ اليوم بانجو وغدًا أمر.

ـ فأدركوا خفايا جملته.

وتحركوا نحو المساكن الشعبية. أسست في زمن عبد الناصر، مكان الأرض الفارغة التي يأتي إليها الفلاحون من كل قرية، فتتجمع أكياس القطن المدكوكة، تُرفع على ميزان القباني، ويعلن الرقم ليسجله أحدهم في دفاتره، ويسجلها الخطاط على الأكياس في لون زاهٍ، عليها اسم صاحبها، وحوض الأرض المنسوب إليها.

رُفع مكان التجميع إلى مكان آخر، أقل مساحة وأقيمت المساكن التي أجرها الموظفون من أهل البلدة أو الغرباء، واختيرت بعض الشقق للصحة المدرسية، وإدارة الكهرباء، والحزب الحاكم.

كانوا ثلاثة، عاطف وصاحب الشقة يتحلقون حول جوزة، سهلة المأخذ، ومنهم من لا يفضل تدخينها، فيلف السجاير.

القوي هو من يتعامل مع الأداة الأولى للتدخين والضعيف منهم من يدخن سيجارة أو سيجارتين، ويكتفي «مجرد تحلية جلسة، لا غير».

ـ نادي عليه يا سمارة. (هكذا يدلعه أصدقاؤه لدكنة لونه).

ـ عاطف.

فأطل برأسه، من الشرفة بالدور الثاني، أشار إليهم: الدار أمان.

كان يقيم مع جدته لأمه، بعد مغادرة الوالد والوالدة للعمل بالسعودية، في إعارة انتظرها الوالد طويلًا، حتى أصابه الدور، تركا الولد مع جدته لتراعيه خلال مدة إقامته، فهو لم يكمل شهادته الجامعية بعد؛ لأنه كثير الرسوب، والجدة تنام في الحجرة الداخلية، لا تهتم بذهابه ولا بعودته. والولد يا عين أمه لازم يكون له أصحاب، فقد أنجبته بعد انتظار طويل، وحيد، لا أخ ولا أخت، أصحابه هم إخوته،

يدخن، يحشش، يفعل ما يشاء، إن التدخين لا يفسد أحدًا، يكفي أن جده مات عن ثمانين سنة، ومبسم الشيشة في فمه، ووالده شَرِه في التحشيش وما شابه.

دخلوا الشقة، وتوزعوا في غرفته الخاصة، كلٌّ في مكانه المعتاد.

وكان عاطف أبو الخير قد أعد المنقد، وترك بصبوصة صغيرة، لتظل مشتعلة، وغيَّر ماء الجوزة التي ورثها عن جده، ورفعها على قاعدة حديدية تسمح لها بحرية الحركة يمينا وشمالًا، وفي كل اتجاه، كما عصر الدخان القص في خرقة هي بقايا فانلته القطنية، وفرد المعسل على ورقة سوليفان، تطل أطرافها من العلبة، التي يضع في قلبها ما تبقى، حتى يقوم بقص كمية من التبغ الجاف، المخلوط بالعسل الأسود.

ـ ما هذا يا عم عاطف؟

ـ وهل هذه المرة الأولى؟

وقضوا الليلة يتبادلون الغابة، أو ينقلون السيجارة من فم إلى فم.

وعُمرت الرءوس، وتخلخل الزمن حولهم، وصار الضحك ميسرًا، وعلى أهون سبب. قال خالد فخر الدين:

ـ أظنها طلبت الشاي.

ـ أنت تعرف طريق المطبخ.

ـ لا أقتحم بيوت الآخرين.

ـ ماذا تريد من الآخر؟

ـ شوية شاي حلوة من يدك المبروكة.

ـ من منكم يريد شايًا؟

ـ كلنا نريد.

لا مفر، الأمر لله، سأعمل الشاي، ولكن الخيانة حرام بين الأصدقاء.

ـ نحن الآن في إجازة من التدخين.

ولحق به خالد لغرض في نفسه، كان مترددًا في إبداء رغبته، ولكن الولد عاطف فيه لله، ولا يرفض طلبًا لصديق من الأصدقاء.

كان مشغولًا بإعداد الشاي، وهو يرقب خالد من تحت لتحت، وانتظر طلبه: أراك تريد شيئًا، وتخشى إظهاره.

ـ عيبك إنك ذكي للغاية.

ـ ماذا تريد بالضبط؟

ـ أن أقضي يومين مع مها عندك.

ـ إلا هذا يا صاحبي.

ـ لماذا يا عاطف؟

ـ أنت ترى أني لا أقيم وحيدًا.

ـ أعرف.

ـ وجدتي لا يفوتها شيء، تحشيش ماشي، بنات لا.

ـ لن أجعلها تشعر بوجودي، ولا بوجود مها.

ـ كيف؟

ـ اسمح لي أولًا، وعليَّ بالباقي.

وظل خالد فخر الدين يحوم حوله، ولا يكف عن إقناعه.

ـ كم من مرة سترت عليك؟

ـ تعيرني يا خالد؟

ـ حاشا للـه.

ـ بيتكم وسيع، وله طابقان، أما هذه الشقة، فمجرد حجرتين وصالة.

ـ أقسم لك بالمصحف الشريف، لن يشعر أحد بوجودنا.

ـ لولا حلفك بالمصحف.

ـ ستسمح لي.

ـ تفضل، وأنا لن أتحمل رأي الجيران، أما جدتي فأنا كفيل بها.

ـ لولا أني اتفقت معها على شقتك.

ـ جئت عندي وأنت منته من كل أمورك.

ـ كنت واثقا من صداقتنا، وأراهن عليها، كما وثقت بجدعنتك.

ـ وسيادتها متى ستشرفنا هنا؟

ـ فجر الغد؟

ـ الفجر؟

ـ لتأت والناس في سابع نومة.

ـ لن أحصل على حقي من النوم، فسهراتنا تمتد في أحيان كثيرة إلى الصباح.

ـ نم أنت مع جدتك، واترك لي الباقي.

ـ وكيف سأقنعها بعدم دخول الحجرة؟

ـ قل لها عندي ضيوف غرباء هم زملاء الجامعة.

ـ أنت داهية.

ـ وأشرق وجه خالد ببسمته التي يحبها عاطف، فهو ضعيف تجاهه بحكم عراقة الصداقة بينهما، كما أنه يجد في تفوقه الباكر، ما يفتقده في تحصيل العلم.

(٣)

عجز الأستاذ مصطفى الشيخ في الحصول على شقة بالإيجار لأنه لم يقدر على إنشاء بيت ملك، وكان قد تنقل من مكان إلى مكان، واستقر أخيرًا في سكن قريب من عمله، ثم إن الإيجارات في ازدياد دائم، فافتقد حرية التنقل، يقيم مع زوجة، لا تعمل، لتعاونه على تكاليف العيش، يذهب إلى عمله بالوحدة البيطرية، وهي تهبط إلى السوق لشراء ما تم الاتفاق عليه من طعام، تعمل على ترضيته أبدًا، كانت لها بنتان يعاونانها في عمل البيت، وتم زواجهما وحين تنجب الواحدة منهما ترسل الرضيع لجدته، لمراعاته، أضف إلى هذا القيام بالكنس، والتنظيف، حتى يعود من مكتبه في الثانية ظهرا، وتكون البنتان قد عادتا إلى بيتيهما، رافعتين الأحفاد بيد، أو ساحبتين بالأخرى.

الآن حان موعد عودته الليلة، بعد ادعائه أنه يجالس أصدقاء وزملاء العمل، ولم يكن هذا مما اعتاده من قبل.

يقضي الأستاذ مصطفى الشيخ الوقت مع أم كريم، زميلة العمل، وكان قد فاتح مها في هذا الموضوع؛ لأنها موضع سره وخفاياه المستترة،

ولأن لها أغراضًا في رفض العريس القروي، أو لأنها تخطط للخروج من بيتهم، فتجد التعاطف الأبوي الذي تحتاجه.

فتحت له أم مها الباب حين دق الجرس، لا يشعر تجاهها بأي ذنب، فقد تقوض بدنها، وبانت عليه شيخوخة مبكرة، رفعت عن بدنه الجاكت، وحلت عقدة رابطة العنق، ثم وقفت خلف ظهره لتسحب القميص، ثم فردت أمامه البيجامة المطوية.

ـ جهزي لنا العشاء.

ـ انتظر قليلًا حتى تعود مها من مشوارها.

ـ مها هنا؟؟ هل سيد أتى معها؟

ـ جاءت لوحدها، وذهبت لتشتري أغراضًا لها. أرادت أن تفاتحه في رغبة البنت في هجر زوجها.

ولكنها آثرت الصمت (هي وأبوها شورة خير) فهي أحب بناته إليه، وبينهما أسرار لا تعرف عنها شيئًا، وكثيرًا ما تدخل عليهما الحجرة، فيصمتان، وكأنهما يمتلكان خفايا لا تدرك مغزاها، بينما هي من جانبها مجرد فتاة غامضة لا تكاشفه بما يدور في عقلها، ثم سرعان ما دق الجرس مرة أخرى ودخلت عليهما مها تلهث من صعود درجات السلم. فأقبل عليها يقبلها من وجنتيها.

ـ كيف حالك؟

ـ وأخبار السيد؟

ـ بخير.

وأعدت الأم مائدة العشاء بعد أن تركتها في الغرفة وحيدة تبدل ثيابها.

ودار الحديث أثناء العشاء.

قالت أم مها: إن مها لا تريد العودة إلى بيت زوجها.

ـ أنا لا أطيقه يا أبي.

ـ بعد أن وقعت الفاس في الراس.

ـ كنت رافضة له، ولكنك أجبرتني.

ثم أعلنت أم مها الخبر الذي أربك حسابات الأب.

ـ وهي الآن في الشهر الثالث.

ـ يا خبر!!

ـ إن هذا سيعقد المشكلة.

ـ لا تعقيد ولا يحزنون.

ـ كيف؟ سندخل في سين وجيم، ومحاكم، ونفقة وما شابه، إن قلة خبرتك لا تسمح بمعرفة المشاكل.

ـ أنا لا أدري شيئًا غير أن الحياة مستحيلة، إنه لا يحل ولا يربط، والأمر كله في يد أمه.

ـ لا دخل لي بهذه التفاصيل، إنني أحافظ على كرامة هذه الأسرة، فلا تطليق في عائلتنا، إنها سابقة لم تقع من قبل.

ورفعت الأم بقايا الطعام إلى المطبخ، ولم تحاول مها معاونتها،

ونظرت البنت إلى أبيها نظرة ذات مغزى. كأنها تقول في سرها (هذه مقابل تلك. تطليقي في مقابل إخفائي لسرك مع أم كريم) فاهتزت عيناه، وأخفى نظرته بعيدًا عنها.

أراد أن يشغل التليفزيون ليشغل نفسه، عما يدور في عقل كل واحد منهما، أما مها، فقد غسلت يدها، ودخلت الحجرة التي ضمت جدرانها طفولتها، وصباها، قبل أن تُجبر على ترك بيت الأب، مددت على السرير بكسل، وهي تفكر في تدبير خالد، هل سيوفق في البحث عن مكان، إن جسدها شغوف إليه، فكم جربت لمسه، وتقبيله، وكانت في أثناء ذلك تقارن بين الشابين: الزوج، والحبيب، فكانت نفسها تنزع إلى الآخر، وتتبلد بل تتقزز من الأول، إن خالد بعطره الفواح وخبرته، وحنكته، يعزف أجمل الألحان، أما الزوج فإنه ينام معها كالبهيمة، وهذه المقارنة دفعتها لاتخاذ القرار مهما كانت خطورته.

- ولحق بها أبوها الأستاذ مصطفى الشيخ منكسرًا، ومهزومًا. لا يريدها - في لحظة تهور - البوح بسرهما، ولكنه لن يوافق على تطليقها مهما كانت الأسباب. فرد طوله إلى جوارها، وهو ينفث غضبًا كظيما.

- حاولي مرة أخرى.

- يا أبي وأنت سيد العارفين، مستحيل، فالرجل نفَس، وسلوك راق، ومن الرجال من لا يصلح للحياة الزوجية، حتى لو نثر أغلى العطور في كل قطعة من جسده.

إنه يتعاطف مع مشاعرها، ولكنه لا يستطيع اتخاذ القرار، فهو من اختاره، على ظن أنه من السهل اعتياده، والسيطرة عليه، انقلب جسد

الأب نحوها، وصارت العيون في مواجهة حقيقية استعاد بها لحظات قضاها على نفس الفراش قبل زواجها، وحين افتقدها، وقع في غرام أم كريم، امرأة مطلقة، لا ولد لها، تلعب بالبيضة والحجر، وقادرة على استثارة وخم الرجال، ابتاع لها الهدية بعد الهدية، وقربها من مكتبه الذي سمح لهما بتبادل كلمات الغزل المكشوف، بحيث لا تلتقطها أذن الزميل أو الزميلة التي تجاورهما، وتواعدا على اللقاء في شقتها، فهي امرأة غريبة لا تنسب لأهل البلدة، فلا خوف عليها، ولا خشية منها، أراد أن يعلن سره فلم يجد غير مها، لا لأنها تكره أمها، ولكن لأنها الأقرب إليه، صحيح أنه يسعد بالفضفضة معها كابنة، ولكنه لا يستطيع سماع ما يشبه قصتها، مد يده ليأخذها في حضنه، فاستجابت له في تنهدة، صحيح هو والدها، ولكنها تميل إليه أكثر من زوجها.

دنا بكفه ليلمس منحنى الكتف، ثم حوم حول النهدين اللذين ازدادا خصوبة.

ـ حاولي مرة أخرى يا مها.

ـ لا أستطيع يا أبي.

وتحدث معها طويلًا في محاولة لإقناعها ولكنها رفضت كل الحلول التي قدمها، وآمن بأن الحياة في بيت الزوج صارت مستحيلة.

فقام زاهدًا، دون غضب، شد الباب وراءه، ونام إلى جوار زوجه، بقرف، وعقله هناك مع أم كريم التي تمنحه بهجة العمر، وتمده بشهوة لا نفاد لها، ظل يقارن فترة بين زمنه التعيس ويأس ابنته مع زوجها حتى غلبه النوم، فاستجاب له.

* * *

(٤)

بعد لقائهما على رصيف المحطة، هبطا إلى موقف السيارات، فالقطار لا يصلح لرحلتهما، لأن خطوطه في قلب المزارع، تنأى بنفسها عن آخر طريق للشرق، قليل من الأراضي المستصلحة، وكثير من الرمال التي تنتشر على كثبانها وحدات للجيش وتقام على سفوحها مصانع جديدة، هي واجهة لصناعات غربية ويابانية، والطريق يسمح لهما بدخول القاهرة عند حي المطرية، هنا سيكون المستقر لهما إلى حين، كان مترددًا في استخدامها لأنها مغلقة ومهجورة، تفتقد النظافة التي تليق بإقامتها فهي غير نظيفة بالمرة، كان والده قد أجَّرها له حينما كان طالبًا بجامعة عين شمس بعد التخرج رفض التفريط فيها، ربما استطاع استعادة ترميمها وتنظيفها، ورفع القاذورات من جوانبها، ليتمكن من الارتباط بابنة الحلال المناسبة، أو الإقامة بين جدرانها وها هو الوقت المناسب لها، ستكفي بالغرض، وكان يكتفي باللقاء بها، في حديقة بيته، أو سطح بيتها حين تأمن لغياب الأم والأب، وحيثما اتفق، مما تتيحه الفرصة المختلسة.

صعدا إلى عربة (الميكروباص) الـ (تويوتا) وتخيرا المقعد الأخير الذي لا يتسع إلا لشخصين.

وقف السائق في مدخل الموقف، ينادي على رحلته حتى جمع الأحد عشر راكبًا، ضغط على دواسة البنزين بعد أن وضع شريط القارئ السعودي الممل، إن صوته يحيي في ذاكرته طنين الذباب حول فتحات المقابر.

ـ توكلنا عليه، الفاتحة للنبي يا اخوانًا.

ورطبت الفاتحة ألسنة الركاب الذين رددوها همسًا.

كانت السيارة تطير فوق الأسفلت بخفة الريشة يستعرض السائق قدراته في الاقتحام والكر والفر حول سائقي الميكروباص من زملائه القادمين من مدن أخرى.

الترتيل، والصوت الكئيب للقارئ، تغلبا على مشاعرهما، فجمدت جذوة الشهوة المتقدة. فمال برأسه نحو الزجاج الخلفي، ليكمل نومه، فقد قضى الليل مع الأصدقاء لتدبير خطة بديلة، فعاطف النذل بدَّل رأيه عند نهاية السهرة.

ـ خالد .. لا أستطيع أن أتيح لك الفرصة التي طلبتها، فالأمر ليس بالسهولة التي تتصورها.

ـ لقد وعدتني يا عاطف.

ـ حصل، لكني لا أستطيع، ولا أريد القيام بهذا الدور.

ـ كان يقفان في مدخل (البلوك) بعد أن فارقتهما جماعة السهرة.

ـ إنك تفتقد النخوة مع الأصدقاء.

ـ سمها ما شئت.

ـ وعد الحر دين يا عاطف.

ـ أنا لست حرًّا. لي جدة تقيم معي، ولي جيران لا تخفى عنهم خافية.

ـ وأين الجدعنة، والشهامة، كم من رسالة كتبتها إلى حبيبتك؟

ـ أتعيرني؟

ـ وأبصق في وجهك أيضًا.

ـ الله يسامحك.

شجعه هذا على دفعه، نحو الدرجات القليلة للدور الأرضي، فسقط عاطف على ظهره، فلكثرة ما تناول من بانجو، لم تعد لديه القدرة على المقاومة، وظل لفترة طويلة يجاهد عقله في استيعاب ما حدث، وخالد فارق المكان عائدًا إلى بيته، في انتظار موعدها، لم تعد هناك فرصة للتراجع، ألقى نظرة على البيت، فوجد الأم مستغرقة في نومها، وخادمتها العجوز فردت السجادة الصغيرة لتؤدي صلاة الفجر، فانسحب بهدوء، يسير ببطء من شارع إلى شارع، محلات البرجين غلقت أبوابها، وأطفئت الأضواء البهيجة، مر على كثير من تجار الفاكهة، يفترشون الأرض أمام بضاعتهم، ورأى النور الشحيح لبائع الفول والطعمية، حين دنا منه امتلأت أذناه بضجيج الماكينة التي تطحن حبات الفول المبلولة مختلطة بالبصل والكرات والكزبرة، اشتهى الساندوتش الأول، فالزيت غير مستعمل، ألقى نظرة عليه فوجد الصينية الكبيرة السوداء زيتها على نار وابور قوي، والرجل وقف خلفها، يكور العجين الطازج ويلقي به في الزيت المغلي، ثم صعد درجات المحطة، وجلس على نفس الكرسي الذي التقيا عليه البارحة.

وفض ورقات الصحف، ليسحب منها ساندوتش الصباح الشهي، وكان يلقي النظرة من حين إلى آخر متوقعًا قدومها في الموعد المحدد.

أخيرًا رأى قوامها المثير، بخصوبة لا تنتمي إليه، كانت تعبر قضبان السكة الحديد بحذر، وترقب التحويلة الأرضية حتى لا تقبض على قدمها.

جلست بهدوء إلى جواره، وهي تخفي وجهها في طرحة سوداء بلون كحل عينيها.

ـ كم أنت جميلة يا حبيبتي؟

ـ أنت الأجمل.

ـ كيف قضيت ليلتك؟

واستعادت محاولات الأب في إقناعها، فلم يفلح في مسعاه، قام عنها وهو غاضب، بعد أن قلب كل شلو من جسدها.

هل يريد إبقاء الأمر على ما هو عليه، ليصل إلى أغراضه، عند الزيارة إليها، لا يخرج من الشقة، يمدد جسده المكشوف أمامها.

ـ رحلت إليك للعلاج.

ـ كيف يا أبي؟

ـ يرتاح الجسد بلمسك إياه، وأنا اعتدت على ذلك.

ـ ولماذا لا تذهب إلى صاحبتك أم كريم.

ـ مع أم كريم الأمر مختلف، فهناك الشهوة التي تنعش شبابي.

ـ ولماذا لا تطلب هذا من أمي؟

ـ ما بيني وبين أمك انتهى من زمان.

ـ في الخفاء هي لا تريدني، وأنا لا أريدها، ولكننا نحفظ الود، بسبب العشرة الطويلة.

وتركت وحدها على سرير طفولتها، يشملها ظلام خفيف، نسمة هواء لطيفة تتسرب من خصاص النافذة، تأتي الفكرة وتذهب، تحاول إقناع نفسها بالاستمرار معه، فهناك طفل بريء، تضمه أحشاؤها، منسوب إليه في النهاية، ما ذنبه، ولكن خالد يأخذها إلى عالم آخر، لا تملك تجاهه تبديلًا، إنها مجذوبة إليه بكل ذرة من أعضائها، هو العليم بها، والعارف لكيفية التعامل معها. هناك فرق بين الإجبار والاختيار، في بيت الزوجية الذي لم تختره، ولم يستشرها أحد في مدى قابليتها له. «أمر مختلف في اختياري لمن يعشقه قلبي ويمتع عيني بمشاهدة عُريه الأليف، برائحته الطبيعية التي تنهض الرغبة من عمقها».

وكان القرار حاسمًا لا رجعة فيه، سأذهب معه، ولو لآخر نقطة من الدنيا الواسعة، وليحدث ما يحدث، أبي الذي يلومني، ويرجوني العودة إليه، حفاظًا على مظهر اجتماعي زائف، واقع في نفس البئر التي لا قرار لها، إن أمي توارت من حياته، وصارت أم كريم هي بؤرة الوجود.

لماذا لا تسمحون لي بما تتيحونه لأنفسكم؟

وقامت في الصباح الباكر، بيضاء القلب، طاهرة من كل دنس، ومن كل شعور بالخطيئة.

ـ سأذهب مع حبيبي إلى أقصى حدود الشمس، أصل الحياة، وجوهر الوجود.

وفي الصباح، ارتدت ثوبها الأسود وغطت شعرها ووجهها، وكتبت الورقة: «آسفة يا أبي مضطرة للرحيل، أو الانتحار». وضعتها على زجاج الكومودينو، ورفعت حقيبة صغيرة، بها غيار داخلي، وجلباب منزلي خفيف، مرَّرت أصبع (الروج) على شفتين دسمتين، ورسمت عينًا فرعونية على الكحل الأزلي.

كان السائق قد بدل القارئ بقارئ آخر. فصاح فيه خالد متوترًا:

ـ يا أخي طريقة هذا المقرئ تزعجني.

ـ هذه هي القراءة الصحيحة يا أستاذ.

ـ المهم حلاوة الصوت.

ـ ليس هناك أفضل من السديسي قارئ المسجد الحرام.

ـ إن مصر تفيض بالأصوات الجميلة، أتعرف أن قراءنا هم من علموا المسلمين صحة القراءة.

ـ الوضع تغير يا أستاذ وخضوعًا لأمر سعادتك. سنرفع الشريط، لتسمع شيئًا يفيدك في دنياك.

وانطلق صوت غليظ معاد، يكره الدنيا ومن عليها يتحدث عن عذاب القبر، وماذا سيحدث للعيون الجميلة والشفاه المشتهاة، والشعر المنساب الذي لا يستره حجاب. سيأتي عليهم الدود جميعًا، إن المفاتن هي غذاء الدود في ظلمة القبر.

ـ ربنا يقرفك.

ـ إن هؤلاء الصبية جعلونا نكره حياتنا بمسراتها القليلة.

ـ حاولي نسيان الأمر برمته.

وقطعت السيارة الطريق المسفلت العريض، فبدت على يساره ترعة، نمت على جوانبها الكثير من أشجار الفاكهة، والقليل من محاصيل الأرض.

ـ أين نحن الآن يا خالد؟

ـ هذه بلبيس، عاصمة الشرقية في الأزمنة العتيقة.

ـ والترعة؟

ـ اسمها الحلوة.

ـ حلوة؟

ـ حفرت قبل القناة ليشرب منها عمال الحفر، وتمد الإسماعيلية وبورسعيد وما بينهما بالماء.

ـ ومن الذي قام بحفرها؟

ـ أجدادنا الفلاحون بأمر من ديليسبس، وبموافقة الخديو سعيد.

ـ كانت صحراء قاحلة، اليوم كما ترين الزراعة تنتشر حول واديها، تبدأ من شبرا وتنتهي في بورسعيد.

ـ مشوار طويل. أتعرف كأنني رأيت هذا المشهد في المنام.

ـ القناة أطول منها، تربط بين البحر الأحمر والأبيض.

ـ ياه ..

ـ كانت السبب في احتلال مصر، وأممَّها عبد الناصر عام ٥٦.

ـ أعرف هذا.

مرت السيارة أمام أبو زعبل، فسألت عنه مها.

ـ ما هذا المكان الكئيب؟

ـ سجن أبو زعبل.

ـ سمعت به.

ـ ثم مرت بالقرب من شعلة نار، تقوم على عمود مرتفع، جذوة ناره لا تنقطع، تظل على اتقادها، ليل نهار، وعلى مدار العام، أرادت مها السؤال عنها، وفضلت السكوت، فقدر أنه يذهب في غفوة استجاب لها بهدوء.

ـ يا ربي بالضبط كما رأيت في المنام رغم أنني لم أزر المكان من قبل.

بدل السائق الشريط، وأدخل آخر، يشبه في صوته الأول. ضغطت على أعصابها لما رأت يد السائق ترفع الزر، فيتضاعف الصوت، فقد لمح في المرآة العكسية، صمتها، وشعر أنها لن تعترض.

ثم ظهرت المباني من بعيد، دخلوا حيًّا، له شوارع ضيقة، وعمارات كالحة، وزحام من البشر، يتوزعون ما بين الشوارع، فاحت بالفجيعة «على العموم لن أقيم فيه، يومان أو ثلاثة، ثم تبحث الأمر مع خالد، بعد عودتها إلى البلدة، ولتواجه الأسرة، وليكن ما يكون».

لكزت خالد في جنبه، فانتبه في الحال، قام بعينين يبك الدم فيهما،

وصاح وهو يتهيأ للنزول.

ـ السهرة كانت ثقيلة؟

ـ يعني.

استلما شارعًا ضيقًا، تتوزع الزبالة في أركانه، يقطعان الطريق بحذر، حتى لا يصطدما بسيارة (توك توك) أو بطفل يطارد آخر في شقاوة، يخشيان زجره، حتى لا يشتبكا مع أحد من أهله. فهم في النهاية مجرد غريبين، لا يعرفهما أحد.

ودخل شقة قديمة جدًّا، تآكلت جدرانها المدهونة بجير لم يقم أحد بتجديده منذ استلامه إياها. وأبواب تفيض بالقذارة، فاسودت جوانبها. فارغة، ليس بها غير حجرة، وصالة فرشت بسجادة تناسلت حوافها، وحجرة أخرى تضم سريرًا، وطاولة لها كرسي وحيد، ولا شيء غير ذلك.

صاحت بهول: ياه .. عايزة عمال البلدية.

ـ المهم أننا لن نقيم فيها إلى الأبد، مجرد يومين أو ثلاثة لا غير.

ـ سأحاول تنظيف مكان يفي بالحاجة.

ـ وما هذه الحاجة؟

ـ يا قليل الأدب، وضربته على ظاهر كفه بدلع.

أعد مكانًا (كل شي إن كان)، وركز على الفراش، ضرب أركانه بفوطة قديمة، فهاج التراب الراكد.

ـ يكفي هذا .. فترابه يدفعني للربو.

ـ يعني مريضة بصدرك.

ـ يعني.

ـ لم أشعر بهذا أبدًا.

ـ أحاول إخفاءه عنك .. حتى لا تكرهني.

ـ انتظري هنا لبعض الوقت؛ لأحضر طعامًا يكفي لمدة معقولة.

حين عاد وجدها في ثياب البيت الذي زادها جمالًا.

ـ ما هذا يا حبيبتي؟

ـ بعض ما عندكم.

ـ ولكني لم أحضر ملابس بيت مثلك.

ـ الجو معقول .. ويمكنك البقاء بالملابس الداخلية.

ـ ليتك تفعلين مثلي.

ـ عند اللزوم.

* * *

(٥)

مجنونة هي به، أيام طويلة معه، ولم يفكر في الارتباط بها، مهما أغرمت به، فارق كبير لا يمكن رأب صدعه، خالد يلهو بها، وأصدقاؤه يدركون هذا الأمر، ابن المالك هو ابن المالك، لا يمكنه الارتباط بابنة الموظف بالوحدة البيطرية حتى لو ذهبت أيام الأب ورحل عن دنيانا «يموت الورد وريحته فيه» أمه لن ترضى بها، فهي تنتمي لعائلة كبيرة، ذات شمخة، ترفع وجهها إلى عنان السماء، وإن لم يبق من مظاهر الأمس غير تلك الخادمة التي تهالكت، أبقت عليها لتبقي على المظهر الكاذب، ولدها حاصل على تعليم عال، وفق في مساره الدراسي، ومها مجرد فتاة ذات تعليم متوسط.

خالد يلهو بها، ذات حظ كبير من الجمال (الرباني) أعجب بها، للحصول عليها بسهولة، وأصدقاؤه يلمون بهذا الأمر ولا يعلنونه فلكل منهم رفيقة، تفوقها جمالًا، يرتبطون بهن بهدف الزواج، إذا أتيحت لهم الفرصة، ثم إنهم جميعًا سواء، وإن هبط مركز فخر الدين جودت، فالرءوس تساوت ففي الكلية التي ألتحق بها صديقة، تنتمي

للطبقات الجديدة، هي منتهى أملهم، ليحسن وضعه بالاقتران بها، هو بعراقة أصله، وهي بتحسين نسلها، مها تظن أنه وقع في غرامها، فالولد ماهر، يجيد التعامل مع الجنس اللطيف، يوهم تلك البائسة بالارتباط بها، لينال منها حظوته، يجيد إلقاء شباكه، وتبقى في شراكه، دون مقاومة، أصدقاؤه لا يرضون عن ذلك شفقة منهم على البنت، إنها ـ في نهاية الأمر ـ تنتمي لطبقتهم، ابنة الموظف الذي يعيش على راتب ثابت آخر كل شهر.

يقضي السهرات بما تمنحه أمه من مصروف معقول، فيحصلون على ثمار البانجو الذي يتيح لهم قضاء الوقت في بلدة كئيبة، مملة، يطول ليلها حتى الزهق. إنهم يرقبون خالد فخر الدين، دون إبداء آرائهم، ودون إشارة ما، عن علاقته الزائفة بمها.

قبل دخولهما إلى منطقة (مسطرد) سألته عن النار المشتعلة دومًا فقال هي تدل على مواقد البترول، يوقدونها من أجل الحفاظ على بقائها. إذا انطفأت، يتاح لها الاشتعال بسهولة.

وحين سألته عن السور المرتفع المحاط، بواجهة مظلمة، تفيض بالكآبة، يشير إلى داخله، الذي تدور غرفه الكثيرة، وتتردد في جنباته أصوات بعيدة، يسمع منها أصوات الفئوس، وأدوات الحفر.

قال: إنه سجن (أبو زعبل).

ـ يا ساتر له سمعة ترجف القلوب.

ـ هذا صحيح.

وأخيرًا دخلا حي (النعام) من جهة عين شمس، فوقع بصرهما

على شريط المترو والتحم جسداهما بالزحام الذي تفوح منه روائح منفرة، صعدا سلم الشقة بالدور الثالث، تمتلئ بالزبالة، والهدوم القديمة، ولها كنبة طويلة تصدر أصواتًا يسمعها الجار، ومكتب مفكوك الأوصال، وكرسي يخشى من الجلوس عليه، وفراش مفرود عليه ملاءة قذرة.

كان يطالع تحت أباچورته مقرره الدراسي، اقتعدت هي الكنبة، بينما جلس خالد على الكرسي الآخر، ووقعا في الصمت، حان وقت النوم العميق، فقد قضى الليل في صحبة عاطف الطيب وسمارة، ومها قضت الليل تحدق في السقف وتفكر في قابل الأيام الصعبة.

ماذا ستفعل مع سيد عبيد، والأب، وخالد فخر الدين؟ الأخير أمره صعب، أما الزوج فسيركب دماغه، فهو يتسم بالعند، ولن تسمح تقاليد عائلته الريفية بالتطليق بسهولة، لا بديل عن الخُلع حتى لا يبقى له شيء، وهذا أيضًا ليس بالأمر السهل، فهو إضعاف لرجولته في عُرف عائلته، سيبقيها معلقة، وهذا ما يرضيه إلى حد ما. ثم ماذا عن الأب؟ هي الأقرب إليه، هذا صحيح، وهي تكتم سره، وتبقيه في الخفاء، فلا الأم ولا الأخوات يعرفن ما يكتم الأب، سواء علاقته بأم كريم، أو علاقته الخاصة بها، ستفجر الأمر برمته، علاقة غير شرعية بالزميلة، وارتباط محرم بالأب؟ فماذا تفعل؟

ـ أجبني يا خالد.

ـ بماذا أجيبك؟

ـ علاقتنا المستقبلية، أأطلب الطلاق للارتباط بك؟

ـ سنأخذ وقتنا فأيامنا هنا تعطينا الفرصة للتفكير.

ـ ألا تحبني؟

ـ وهل في ذلك شك..

ـ إذن قل ما الحل؟

ـ أنا بحاجة للنوم، حين أستيقظ سنفكر معًا في مستقبلنا.

ـ سأنام على هذه الفرشة، وعليك أن تأخذي مكانك إلى جواري.

ـ حاضر.

وسقط في النوم في الحال.

وهي اتخذت مكانها على الفراش، تتأمل أيامها الماضية، وتفكر فيما هي مقبلة عليه. ثم سرعان ما استغرقت في أحلامها، أحلام باهتة، لا ظل لها، فالنوافذ كلها مغلقة، وتعكس ظلال الأجساد في الشارع، الذي لم يكف عن الضجيج، صوت حجر الطعمية، وضربات الحداد القريب، وموتور السيارات التي تمرق في شوارع الضاحية، لم يحفل بهذا كله، سقط في نوم عميق، اعتاد عليه منذ أيام الدراسة، أما هي فإنها تنتمي لبلدة صغيرة، انتقلت بعدها إلى قرية، لا يتردد في جنباتها غير نهيق الحمار، ونواح السواقي النائية.

استمر في نومه حتى ظهر هذا اليوم، ففوجئ بوجودها. لم يعتد على حضورها القريب، فأطلت في وجهه ببسمة ودودة أضاءت حيز المكان بإشراقته البهيجة.

ـ نوم العوافي يا حبيبي.

ـ بادلها البسمات، فاردًا ذراعيه على آخرهما. فلمس بكفه ليونة ثديها الخصب.

ـ نمت جيدًا؟

ـ لا بأس. .. سأنزل لأحضر طعام الظهر والعشاء.

ـ أنا (قاطعة) من الجوع.

ـ وأنا كذلك.

سار بحذر بين جدران الزقاق الضيق، ثم عاد بعد مدة، فسألته عن التأخير.

ـ كنت أدخن حجرًا من الشيشة.

ـ على الريق؟

فرد ورقة الجريدة فوق الفراش، فطرق أنفه رائحة عرقه المخزون، إن هذه الرائحة محببة إليها، «لم تفارق مسامه، منذ انتهائه من التعليم» ووضع كنكة الشاي على بوتاجاز مسطح، الآن ارتاحت أعضاؤهما، فعادا بظهريهما إلى الوراء، مستندين على وسادتين لهما ثقوب، بادية للعين.

مد يده عن قصد، واحتضن الجسد، المتطلب، فدفعته بدلع، يقبل مرة ويبعد مرات، ونام برأسه على صدرها، فاستدارت إلى الجهة الأخرى «يا لحواء اللعوب» استكانت إليه، وهي ترنو بنظرة عاشقة، دفعته لتحبس رغبته العارمة «إنني لست مستعجلا» الليل طويل ولنا ليال أخرى لن نعود إلى بلدتنا حتى أقضي ما أريد.

والأصدقاء سيكتمون سري، والأب سيبحث عنها. في مظانها، أما الأم فلا حول لها ولا قوة، لن تترك بيتها حتى لو علمت من أصدقائه. والزوج سيظن أنها تقضي أيامها في بيت أبيها، العلاقة بالأب لن تسمح بفضح نفسه، والأم تسير في ركابه، والزوج لا خشية منه، لا لأغراضه، ولا لطلبه الخلع أو التطليق. إنها سيهجرها على أنها في حماية الأب.

ـ فما العمل؟

وأعادت طرح السؤال بصوت عال: ما الحل يا خالد؟

ـ سنعثر على حل بالتأكيد «فلكل عقدة حلال».

ـ سأقضي معك المدة الكافية حتى نصل إلى حل.

أمسك بيدها الناعمة، ولمس فاها الذي يحب ريقه.

ـ سأطلب الطلاق من سيد عبيد، هل ستوافق على الارتباط بي؟

ـ حتى ننتهي من أمر الجنين.

ـ ولكني لن أعود إليه أبدًا.

ـ ابقي في بيت أبيك إلى أن ننهي أمره.

ـ هذا أقصى ما توصلت إليه؟

ـ دبريني يا مها.

ـ التدبير للـه.

كان خالد يراوغ حتى يصل إلى أغراضه، لم يكف عن الدنو منها، وخطف القبلة، قبل خفيفة خاطفة تهييجا لرغبته، فيصل ما انقطع.

ولكنها رفضت الاستجابة، فجسدها واهن، لم يعد جسد الفتاة الشابة، خالية البال، ألف موضوع تفكر فيه الآن، فالعقل مشغول، بهجران الزوج، وترك بيت الأب، والجنين الذي يتشكل بداخلها.

انقضت ثلاثة أيام، وهما على حالهما، يقلب في أنحاء البدن، فلا يشعر برد فعل يرضيه. والبلوغ إلى الذروة، والهبوط إلى سفحها، أجهده، فزهد في إطالة المدة.

ـ هل توصلت إلى شيء؟

ـ أرى مواجهة الأب دون لف ودوران ليطلب من الزوج منحك الحرية، التي تكفل لك الإقامة في بيت الأسرة.

ـ ثم ماذا بعد؟

ـ أبدًا ننتظر إلى حين، حتى تضعي جنينك.

ـ مجيئه يضاعف المشكلة لا يحلها، سيربطني به أكثر.

وكان يفكر في الشهور القليلة المقبلة، فستنتفخ بطنها، ويتورم الجسد، مما يجعلها شائهة، واهنة، فلن يفيد منها شيئا، إذا قدمت لها العذر الزائف.

لم ترض باقتراحه، مجرد تسويف لا يسوغه شيء. فغضبت منه، أين العاشق القديم؟ كنت أذهب إليه متلهفة إذا أشار إليّ بطرف أصبعه.

ـ ثم قد تتفتق عقولنا عن حل لا يأتي على الخاطر.

ـ ماشي يا خالد .. هيا لنعود إلى بلدتنا، وليكن ما يكون، إنها تراهن على ضعف الأب، لا على شجاعة الزوج الذي لم يكشف له الأمر.

* * *

(٦)

استيقظ الأستاذ مصطفى الشيخ في موعد العمل، بعد نوم متقطع، لم يسقط في بئره العميقة إلا مع الفجر، أراد الدخول إلى غرفة مها، ليطلب منها الانتظار حتى موعد عودته من الوحدة البيطرية، فوجده شاغرًا، فانتابه الفزع، كيف خرجت أثناء نومه؟ وعثر على ورقة مكتوبة وموضوعة على الكومودينو، وتنتهي بـ «آسفة يا بابا، سأخرج من حياتكم إلى الأبد .. فأنا لا أطيق العودة إليه..».

يا لهول المفاجأة، ها هي لم تنسه، الحبيب الأول، لو تأكد من قبوله لها لوافق عليه زوجًا لها «العين لا تعلو على الحاجب».

كان يهلوس عند خروجه من الغرفة، فوجد أم مها قد أعدت طعام الإفطار:

ـ بنتك غادرت الشقة.

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول: بنتك خرجت مع أول خيط من النهار.

ـ ربما عادت إلى زوجها.

ـ استحالة، عادت إلى ابن فخر الدين الذي يضحك على عقلها.

ترك الطعام، وارتدى ملابس العمل، وقف في الشارع الرئيسي منتظرًا المواصلة التي ستأخذه إلى مدخل البلدة، جاءه (التوك توك) رافعًا المذياع إلى أقصى حد، لا بد من البوح بسره لأحد ما، ليس غيرها أم كريم التي تهدهد أعصابه المشدودة، ثم سيقدم إجازة اعتيادية لنهاية الأسبوع ليتمكن من البحث عنها، والعثور عليها حتى لو كانت في أقصى نقطة من العالم. المكتب مكتظ بالزملاء. كان للوحدة دور عظيم في زمن عبد الناصر، ثم انسحب دورها، واقتصر على ماشية مريضة، أو طائر من طيور البيئة، واكتسحت الإنفلونزا الطيور، فتضاعف نشاط أطباء الوحدة، وانشغلوا بتوجيه الإرشادات لحماية طيور الأهالي، فخلت الأسطح من وجودها، ثم لم يكفوا عن مراقبة مفارخ الدجاج، والحملة الآن على أشدها، وغير مسموح التقدم بطلب الإجازات، البلد في حالة طوارئ استثنائية، انتحى جانبًا بأم كريم، فقامت من مقعدها تلملم أطراف النقاب الأسود، والذي يسمح بإظهار سواده، باستخدام الكحل، فيجعل تركيزه على العينين أكثر قوة، وكثافة، اقتربت بجرمها الكبير منه، تنشق ريح الذكر فيه، وكان إلى الأمس القريب تتقد ناره، فلا خمود لها، كانت تظن أنها اليوم كأي يوم من أيامها المعتادة، ولكنها شعرت بانشغاله، فقد تكدست على سحنته طبقات من الكآبة.

ـ خير يا مصطفى؟

ـ ومن أين يأتي الخير؟

ـ استغفر الله يا رجل.

ـ مها هجرت بيت زوجها.

ـ عادي، فنساء كثيرات يفعلن ذلك.

ـ هجرته ليلة الأمس.

ـ قلت لك عادي ألم أغادر بيت زوجي من أجل علاقتنا المشتركة.

ـ وفي الصبح وجدت سريرها فارغًا.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ـ هل تعرف مكانها؟

ـ لا أعرف.

حين استلمت أم كريم العمل ظلت سافرة، وحين وقعت عين الزميل عليها مع الأستاذ مصطفى اضطرت إلى اللجوء للنقاب حتى تخفي سلوكها، على أن تتسم أفعالها بالاستقامة والتدين، وحتى يسمح لها النقاب بالتعامل مع الأستاذ، إذًا فقد اصطادت أكثر من عصفور بحجر واحد، إنها بحاجة للتستر بعد تقوية العلاقة بمصطفى، بسماحها بزياراته الليلية. وكان قد صارحها بأن مها هي التي تطلع على سره، فأحبتها، بامتنان نادر، كانت دائمة السؤال عنها في حياتها الجديدة، فيجيبها الأستاذ مصطفى:

ـ بخير.

ـ لا مشكلة هناك.

ـ كيف يا أم كريم؟

- اطلب الطلاق من زوجها.

- ثم؟

- وزوِّجها لحبيبها الأول.

- هذا من سابع المستحيلات، أولًا هي حامل الآن، وخالد هذا يلعب بها، ليتني أشعر بالجدية تجاهه، كنا قد أنهينا الأمر قبل الزواج، ولها رجل يتحرك بين البشر بدماغ بغل حرون، سيعلقها، ولن يتخذ قرارًا تجاهها فهو ينتمي لطبقة ريفية ترى في طلاق المرأة هزيمة للرجل، وعائلتنا على شاكلتها تقريبًا.

- افتح الموضوع مع عمها فهو رجل شهم، جدع على حد وصفك له.

- كله إلا هذا الأمر، بناتنا لا يطلقن أبدًا، السمعة بين أهل البلد، ونحن من فئة الموظفين الذين تتحجر عقولهم بسبب الخوف من فقدان الاحترام.

- بلا احترام، بلا (دياولو).

- المهم تقديم الحل الذي يرضي جميع الأطراف.

- هل أفاتح العم في الموضوع فيقارن بين بناته وبناتي؟

- لا تهتم طالما وصلنا إلى حل للعقد النفسية والاجتماعية.

- سأحاول، على أن تقدمي لي إجازة اعتيادية فقد يتأخر مدير الوحدة، وأنا أريد اللحاق بالأمر قبل استفحاله.

- توكل على الله، ربنا معاك، حين تعثر عليها طمئنِّي.

ـ حاضر.

مر النهار بطوله ولم تظهر مها، واجتمع الأب مع أخيه، ومع بناته اللائي يقمن في بيوت أزواجهن بسكينة واطمئنان.

زمجر الأستاذ حلمي الشيخ بغضب، ولعن البنت وأباها، وكل أطراف الأسرة المغلوبة على أمرها.

تناثر الزبد من شدقيه، وهو يوجه سؤاله لأخيه الأصغر: وأين كنت حين خرجت من البيت، كنت في سهرة عند الست هانم، إشارة إلى أم كريم فقد علم بالعلاقة معها، دون توجيه اللوم، ثم انبرى نحو الأم الساكنة التي توزع الدمع في شرايينها.

ـ وسيادتك كنت في عز النوم.

ولم يخاطب الأخريات لعلمه بانشغالهن في بيوت الأزواج. كما تأكد بعدم معرفته بالعودة إلى بيت الأب، فلا حول لهن ولا قوة، اكتفين بالنظر إلى الأم، كن يشفقن عليها لكثرة بكائها منذ اكتشاف اختفاء الأخت.

ولا يدري حلمي أهو مبالغ في انفعاله لحرصه على سمعة الأخ وسمعة الأسرة جميعها، أم بسبب العلاقة الخاصة التي تجمعه بالبنت. فكم من مرة يدعوها في شقته، لقضاء الليل معه عند غياب زوجته، أو عند زيارتها للأسرة في عاصمة الإقليم، كان يحب لمس بدنها وهي تتلقى اللمس، صامتة، عاجزة عن الدفاع عن نفسها ضد العم المهووس، ولا تستطيع البوح عن فعل أخيه،

حرصًا على العلاقة بالأب، ثم إن أحدًا لن يسمع لها، لأن للرجل وجهين: المحافظ على التقاليد والأصول، والمتهتك في سره، إذا أتيحت له الفرصة.

ـ سنمر على الأقرباء جميعًا.

ـ إنها أذكى من أن تختفي عند واحد منهم.

ـ أقسم بالله لو أمسكت بها الآن لخنقتها.

وتوزعوا في كل مكان، وأهل البلدة لا يدركون النشاط المفاجئ لهذه الأسرة، يتطلع حلمى في كل وجه، لفتاة عابرة، وكذا الأب لم يترك مكانًا لم يبحث فيه، أما الأخوات فقد ادعين زيارة أصدقائها علهن يجدنها مقيمة لدى صديقة، أو زميلة من زميلات الدراسة، ولم تظهر على الإطلاق، وكان عاطف أبو الخير يرقب سلوكهن، كما يتابع من بعيد ظهور الأب والعم، إما كل على حدة، أو يسير الاثنان معًا، وكان كل هذا يبعث الشفقة في قلبه، ودفع خالد له بعنجهية مما أدى إلى سقوطه على الدرج. بعد انقضاء السهرة أوغر قلبه تجاهه، والأسرة تنتمي إلى شريحتهم الاجتماعية، فكل من أبيه والأستاذ مصطفى الشيخ من طبقة الموظفين الذين ينتظرون الراتب آخر كل شهر، صحيح أن أباه تميز عنه بفرصة السفر إلى السعودية، إلا أن الأصول واحدة، ربما صادفت الفرصة الأستاذ مصطفى، فيتبدل الحال، وإذا أتيح له ما أتيح لأبيه، لتساويا في الأمر.

في ليلة أخرى من ليالي البانجو لف عاطف أبو الخير سيجارتين،

فاشتعل رأسه، وامتلأ بتأثير المخدر. هبط درج (البلوك) تاركًا جدته وحيدة.

قالت له مشفقة عليه:

ـ أراك مشغولًا بأمر ما.

ـ ولا أمر ولا يحزنون يا جدتي. سأحضر معي الزبادي والجبن، هل ترغبين في شيء آخر؟

ـ تعيش يا بني.

انطلق جهة البرجين ليلتقي بالأصدقاء هناك. كانوا متناثرين في ضوء (الفاترينات) واستمر عاطف في تحديقه لمواضع الفتنة فيهن، صعد إلى (المول) ليلتقي بصاحبته، كانت بانتظاره، بالدور الثاني، وقف بالقرب منها، وهي تتأمل مسحة الحزن في وجهه.

ـ أراك حزينًا في تلك الليلة.

ـ تشاجرت مع صديق.

ـ ليس هذا من سلوكك يا عاطف، إنك طيب وابن حلال.

ـ استفزني يا ريم حتى إنه دفعني في صدري، لن أتركه يفعل هذا مرة أخرى.

ـ وهذا ليس من طبعك، هل كتبت لوالدك؟

ـ إنه موافق، وسننجز الموضوع بعد عودته في الإجازة الصيفية.

ـ هذا خبر سعيد. فلا تكتئب هكذا.

ظلا في وقفتهما في (المول) حتى أزف وقت الرحيل.

ـ لن أتركك تعودين وحدك.

ـ نحن في بلدة آمنة يا عاطف.

ـ أعرف ..ولكن أخلاق الشباب تغيرت.

وعاد بها في (التوك توك) لم يكف عن الصعود والهبوط، والجسدان ينتفضان ويتماسان بدون قصد.

ـ شوارع زفت.

ـ هل سنستجد عليها، هي في النهاية بلدتنا، ولا نملك غيرها.

وعاد بنفس الوسيلة بعد أن أوصلها إلى العمارة التي تسكن ـ مع أهلها ـ إحدى شققها.

كانت الأبراج قد أطفأت أنوارها، وسمارة كان بانتظاره.

ـ وصلتها؟

ـ كيف عرفت؟

ـ مرت من أمامي العربة، فلمحت وجهك بالأسى الذي لا تستطيع مقاومته.

ـ معي حجران، تعال لنقضي الليلة في شقتنا، وجدتي الآن تاكل رز باللبن مع الملائكة.

ـ وهل تملك أسنانًا للبن؟

فتبسم عاطف في وجهه، ومرة أخرى عاد بالزبادي والجبن، طعامهم المسائي المريح للمعدة، وفي الصبح تقدم له جدته الفول الذي تعده بالليل، بعد أن تضع القِدرة على سخان كهربائي هادئ.

نشر الصحيفة على الأرض، وراح يعد الحجرين، بعد أن غير ماء الجوزة، بعد عشرة أحجار انطلق اللسان من عقاله، وسأله سمارة.

ـ وهل ستبقى على خصامك معه بعد العودة من رحلة الغرام؟

ـ لن أتركه في حاله أبدًا.

ـ يكفي أنه يمدنا بالمخدر.

ـ يغور هو ومخدره، يطلب مني شيئًا ليس بمكنتي، وحين أصر على الرفض يستعمل معي العنف، فيدفعني لأسقط على ظهري على الدرج.

ـ وماذا ستفعل؟ أتتشاجر معه؟

ـ ليس هذا من أخلاقي «عامل ابن بارم ديله».

ـ فسآخذه بما أستطيع. لم يتح الأمر بعد لإعلان ما أريد.

الضعيف دائمًا وسائله ملتوية، وغير واضحة.

بعد غياب خالد ومها بليلة تخفى بين أزقة الحي، جلس على مقهى قريب من شقة خالد، ورآه من بعيد، فتأكد من اصطحاب البنت هناك، وفي الليلة التالية ذهب إلى شقة الأستاذ مصطفى الشيخ، طرق

عليهم الباب، وكانوا مجتمعين في الردهة، يناقشون عجزهم في العثور على مها.

أخذتهم الدهشة، فماذا وراء هذا الشاب، إنهم يعلمون صلته به.

ـ تفضل يا بني.

ـ تسمح كلمة يا أستاذ مصطفى.

ولحق بهم العم حلمي، فإن أخاه الأصغر يتدخل في كل أمر.

فتحت إحدى البنات حجرة الصالون، ثم أغلقت الباب وراءها. بعد أن أمرها عمها بعمل الشاي.

ـ متشكر يا أستاذ حلمي.

ـ اعذرني يا بني حين أسألك عن سبب الزيارة.

هكذا قال الأستاذ مصطفى بانكسار يليق بأب مهزوم.

ـ أنا أعرف مكان مها.

وصرخ العم:

ـ نحن في عرضك.

وقص عليهما زيارته لتلك الشقة أيام إقامة خالد بها، كما قص عليهما زيارته الأخيرة متخفيًا ليتأكد من جرها إليه.

ومنحهما الكثير من التفاصيل، فردت الروح إلى العم والأب.

كنت أتابع بحثكم، وأقول أنا لنفسي: وما دخلي، حتى نم عن سلوك لا يليق بالأصدقاء.

ـ نحن في عرضك.

ـ نحن أهل يا عاطف.

ـ هل تعلم أن والدك كان زميل الدراسة يومًا بيوم.

ـ ومن غير كل هذا تأملت في المسألة، وساءلت نفسي: ما تأثير هذا إذا وقع لأخت من أخواتي؟

ـ أظن أنك وحيد والدك.

ـ أقول مثلا، فلن أقبله.

ـ كما أن هذه العائلة (إشارة إلى فخر الدين جودت) لا ينتمون إلينا.

وطالبه حلمي بقضاء هذا الشأن مع الأستاذ مصطفى «على أن تصحبنا، وتعرفنا بالمكان، ودع لنا الباقي».

ـ ومتى تريدون القيام بهذا؟

ـ اليوم قبل الغد.

وقال حلمي: أرى أن نبدأ مع أذان الفجر، ليمكننا الإمساك بهما قبل مغادرة المكان.

ـ وهو كذلك يا عمي.

ـ لو سمحت سأطرق عليك بابك بعد الأذان مباشرة.

ـ وهو كذلك.

ـ سنؤجر سيارة فليس بإمكاننا القيادة في هذا الظرف الصعب.

ـ اتفقنا.

وقام مغادرًا شقة الأستاذ مصطفى، وحلمي أمسك به، لا يريد العودة إلى سكنه قبل شرب الشاي.

ـ لي شاي عندكم بعد العودة بها.

* * *

(٧)

قضى حلمي الليلة في شقة أخيه، لما عادت البنات إلى بيوت أزواجهن. انعزل في غرفة الأولاد، تاركًا مصطفى مع زوجته. بعد أن رد الباب وراءه، وفرد طوله على السرير استحضر روحها، واستعاد شعوره بها.

الغريب ـ وهو المربي الفاضل ـ لم يتسرب الذنب إلى نفسه. فإحساسه بها أقوى من إحساسه بزوجته، كان جنونه بها حادًّا، ولكنه يضطر إلى إخفاء سره، فلا تفضحه مظاهره، وهو بين الناس يظهر ما تخفيه عواطفه، أمام الجميع، حتى مع البنت نفسها يبدو وقورًا، مستقيم السلوك، بحيث لا يدرك الآخرون جنونه بها، أما إذا أتيحت له الفرصة الليلية، في غياب زوجته، يمنحها المدة الكافية لإبداء الاستغراق في النوم، ثم بعد حين يمد يده لتجول في حدائق جسدها الغض، بثماره الغنية، والمتنوعة. كل هذا يدفعه إلى السعي إليها، كلما أتيحت الفرصة، والليلة يظهر غضبًا لا حدود له، بل يزايد على الأب، والأسرة جميعًا، وهم أصحاب القضية الفعلية.

حاول النوم ولكنه استعصى عليه، العقل يأتي ويذهب فيما سيفعل

هذا الصباح، والصباحات المقبلة، داوم التحديق في صورتها التي أخفى الظلام الكثير من ملامحها، حتى سمع صوت (الكلاكس) قبل الأذان بقليل، كان نائمًا بملابسه الخارجية. ولم يحضر معه لباسًا للنوم، وحين عرض عليه مصطفى إحدى بيچاماته رفض.

ـ المسألة مجرد سواد الليل.

طرق على باب غرفة أخيه، فقام متلهفًا، يضع ساقيه في السروال الأسود وهو مضطرب، ثم ارتدى قميصه المكوي النظيف على جاكت ، ووضع قدميه في النعل، وزوجه تحوم حوله، عاقدة شعرها بمنديل ملون.

هبط حلمي إلى مدخل العمارة، ليطمئن السائق على استعدادهما ومصطفى دخل المطبخ، ليلف صفحة الجريدة على شيء أراد إخفاءه، ولكن الزوجة لمحت لمعة السكين الكبير، فهرعت إلى الشرفة لتخبر حلمي بالإشارة، وعاد حلمي مدعيًا حاجته لزجاجة مياه لزوم الطريق، فقالت له زوجة أخيه:

ـ أخذ معه سكينة المطبخ، أخاف ليقتلها.

ـ سأعيده إليك، وأذهب أنا وحدي.

مال على نافذة السيارة ليهمس في أذنه.

ـ عد أنت إلى بيتك، المشوار مرهق بالنسبة لك، أريد الإمساك بها بهدوء، ثم نتصرف معها هنا. وكأنه لبى حاجته، ووصل إلى ما كان يخشاه برغم ادعائه بأنه سيظل معه.

ـ ما ذنبك تقوم بالمشوار وحدك.

ـ أنا أقدر منك، بحق الشباب، وبحق فارق السن بيننا.

وفتح باب السيارة ليسحبه من الداخل، وهو استجاب له بهدوء.

ـ توكل يا بني.

ومرقت السيارة بين الشوارع الضيقة، مخترقة هدوء البلدة النائمة، بعد دقائق قليلة تردد أذان الفجر في مكبرات الصوت التي ترفعها المآذن المزينة بأنوار ضئيلة ملونة.

ووقفت أمام مدخل (البلوك) بالضبط، دق على الباب دقا هادئًا، فانزاح الباب لمشهد الداخل، جاء (عاطف أبو الخير) من الداخل بكامل هيئته، ووقعت عيناه على الجدة التي تلف وجهها بطرحة بيضاء تضيء الظلمة الخفيفة للردهة المزدحمة، كانت قد عقدت ساقيها تحت جسدها النحيل، مستغرقة في التسبيح بسبحة طويلة من ذات التسع والتسعين حبة.

نزلا معًا إلى السيارة، وجلسا على الكرسي الخلفي.

ـ عم مصطفى لم يأت معك.

ـ إن جسده مرهق، كما أنه قضى الليلة دون نوم.

ـ اللـه يكون في عونه.

عبرت سيارة الأجرة المزلقان المرتفع، قاطعة شريط السكة الحديد الذي أرعش هيكلها المتخلع. ثم استقبلت الجهة الجنوبية بين إضاءة كثيفة لأعمدة البلدية، فللبلدة مدخل جميل، أحواض من الخضرة اليانعة موزع بين الطريقين، وأشجار (الفيكس) تنتشر على الجهة اليمنى،

قصيرة بأوراق دسمة، يقف وراءها سور السكة الحديد الذي يحجز بين وسيلتي الانتقال، بين هذا الذي يقع على يمين الصاعد إلى الجنوب، أما على يساره فتطل عليه مبانٍ حكومية كثيرة، المدرسة الثانوية، المحكمة، بيت رئيس مجلس المدينة، المعهد الديني، والساحة الشعبية وأخيرًا .. الوحدة البيطرية التي يعمل بها الأستاذ مصطفى الشيخ، وشعرت السيارة بالعتق، وحرية الحركة حين استلمت الطريق الأسفلت الفارغ، وخارج حدود بلدتهم تشكلت كتل من الشبورة، جعلت السائق أكثر حرصًا، ويميل إلى الهدوء، وجعلته لا يطفئ نور السيارة، يظل يقلب فيه، خاصة في المنحنيات.

مروا على الشارع الخارجي لعاصمة الإقليم، فأشعل السائق المذياع، فانطلق صوت عبد الوهاب: «اجري .. اجري .. ودّيني قوام وصلني». ثم صوت الست: «يا صباح الخير ياللي معانا .. الكروان غنى وصحانا». وتتابعت أغنيات الصباح، حتى استطاع الأستاذ حلمي التواصل معها بدندنة خاصة، وعاطف ظل في صمته، إنه يحترم مشاعره، فليغن هو كما يشاء، إنها رقصة طائر مغرد رغم الألم.

بعد انقشاع الشبورة انحرفت بهما السيارة جهة الشرق، فضربت الشمس عين السائق، مما اضطره لسحب المظلة المعقودة بزجاج المقدمة، الآن وصلوا إلى (الحلوة) بمائها الذي يسيل هينًا بين شاطئيها الصحراوي، والآخر الزراعي الذي تمرق على جانبه الوحيد سيارات زاد عددها، مع كل بلدة يمرون أمامها، فيركب الطلبة والموظفون، وفلاحات يرفعن القفف على الشبكة، يدخلن بها المدينة للتجارة، يبدأن في مثل هذا الوقت، ويعدن مع (صفار شمس).

واستقبلتهم شعلة النار على الضفة المقابلة، بعدها استقبلتهم أسوار «أبو زعبل»، على الضفة التي تتيح لهم دخول (النعام) عبر حي عين شمس.

ـ وقّف هنا يا أسطى.

صاح عاطف بعد سكون طويل.

ـ أرى أن نركن بعيدًا عن الشقة حتى لا يشعرا بنا إذا تصادف نزولها المبكر، كما أخشى أن يشعر الجيران ويكون أحدهم على صلة به فيخبره.

ـ كلامك صحيح.

وتركا السيارة على شارع رئيسي، ليراوغا بجسديهما زحام أهل الزقاق، في تلك المدينة المهولة.

ـ هل نصعد معًا أم تفضل إبقائي هنا في المدخل؟

ـ انتظر أنت حتى إذا هرب أحدهما فلتمسك به، ودع لي الباقي.

ـ الشقة في الدور الثالث، على يمين البسطة.

خبط قبضة يده على الباب، ففتح خالد وهو يرتعد من الخوف، لم يخاطبه الأستاذ حلمي بكلمة، دخل وهو يكيل له اللكمات في وجهه، والولد يرجع بظهره ليحمي الوجه من اللكمات القوية..

ـ أين مها يا كلب يا ابن ....؟

ـ لم أرها ، أقسم بالله أنها لم تأت معي، وأنا أقيم وحدي في هذه الشقة.

ـ أتكذب عليّ يا ابن العاهرة.

واقتحم الشقة ممسكًا به بقوة حتى لا يفلته، دخل حجرة النوم فوقعت عيناه على ملابسها الخارجية معلقة على شماعة من الخشب.

ها هي ملابسها.

واضطر الولد في النهاية إلى الاعتراف بوجودها.

عبرت سور السطح لتصل إلى شقة الجيران وكان قد قام منذ فترة وجيزة ليفتح باب الشرفة ليسمح للشمس بالدخول إلى الشقة المغلقة منذ هجرها فرأى الأستاذ حلمي بصحبة عاطف يتطلعان معًا لتحديد الشقة وألقى العم نظرة إلى النافذة الجانبية لشقة الجيران، فوجدها تقف مع صاحبتها تنتفض رعبًا، فأشار إليها دون أن يحادثها.

ـ لا تخافي لن أفعل شيئًا، ليس معي غير عاطف.

ـ ابن القحبة هو من فتن علينا.

ـ أتسب من يعمل بأصله يا بن الأصول الحقيرة؟

عادت مها من حيث أتت، لم يوجه إليها العم اللوم، أشار إلى ملابسها قائلًا:

ـ هيا لنعود فأهلك هناك يقتلهم الخوف عليك، ثم دفع خالد إلى الجدار دفعة قوية، فسقط مغشيًّا عليه.

ـ أما ابن القحبة هذا فله حساب آخر، هذه آخر أيام إقامته بين أهل بلدتنا.

انهارت مها على الأرض، تتقلب على سجادتها القذرة، وبدا الذهول في حدقتي عينيها، لقد انقلبت سحنتها، فشوهت على غفلة منه، سحبها

من شعرها المكشوف وهبط بها إلى أسفل. ظلت تردد أصواتًا غريبة عليها، كأنها تصدر عن شخص لا تنتمي إليه، أصوات غير متماسكة وجُمل مهشمة، تود لو تقول شيئًا وتعجز في التعبير عنه.

غادروا الزقاق إلى الشارع الوسيع حيث عثروا على السيارة، واقفة في مكانها، لم تتزحزح خطوة إلى الأمام، أو إلى الخلف. وعادوا من حيث أتوا، مرورًا بالشعلة التي لا تنطفئ نارها، والأسوار الكئيبة الراسخة، تزمجر سياراتها رافعة الأحجار الثقيلة إلى مرتفع الطريق، ثم بلبيس، حيث يفارقون (الحلوة) متجهين إلى الشمال نحو بلدتهم التي تبعد عنها مسافة العشرين كيلومترًا.

والبنت على مدى الطريق تحادث أطيافًا لا يراها غيرها، مرة ترفع صوتها بشتائم لشخص خفي، موجهة إليه اللعنات ومتهمة إياه بإسقاطها وسط الطريق تاركًا بدنها العاري، يتطلع إليه المارة بنهم، ويتداولونه فيما بينهم، دون رادع، لأنها عاجزة عن المقاومة، ومرة تحادث طيفًا آخر بهدوء، تأخذه في حضنها بحنو، وتقبل الهواء أمامها، وكانت نافذة السيارة مفتوحة عن آخرها، فتدفق الهواء ليداعب ليونة شعرها المنكوش.

والأستاذ حلمي يتابع الفتاة، مبديًا شفقة مفاجئة، وحين كانت تلقي إليه النظرات الثابتة، فيشعر أنها تنظر إلى رجل غريب، لا تعرفه.

«كم أخطأت يا مصطفى حينما أجبرتها على الارتباط بشخص لا تطيقه».

ثم يعود فيلوم نفسه على شفقة لا تستحقها.

«فضحتنا هذه الفاجرة، ونحن أسرة ثروتها في سمعتها».

«أقسم بالله لو لمست بعض الجدية في سلوكه لأقنعت أخي بتزويجها منه».

ولكنه المنحط يضحك على بنات الناس.

سمع ببعضها في أحاديث متناثرة، يتناقلها شباب البلدة.

ويحاول قتل الشعور بالشفقة المتصاعدة في مشاعره. «ومن أدرانا.. ربما تؤدي دورًا، يدفعنا لأخذها بليونة، وتتفادى الفعل العنيف الذي لا تعرف مداه».

واستمر في تفكيره الصامت الذي تقطعه تنهيدة الألم ويصيح في وجهها

ـ هكذا يا مها تضعين رءوسنا في الطين.

فلا يسمع استجابة ما، هل نسيت اسمها، ونسيت وجودها؟ ولم يعد لها غير حوار غامض مع كائنات لا يراها غيرها. ظل على هذا الحال حتى وصلوا البلدة مع أذان العصر.

ووجد الجميع بانتظارهما الأب، والأم، والأخوات، فالحدث لم يتجاوز أفراد الأسرة، أراد الأب أن يلقي بجسده على صدرها، ولكنه أعرض عنها ودخل حجرة نومه، معتزلًا الجميع، أما الأم فلم تتمالك نفسها، فقد أخذتها في حضنها وهي تنشج بدمع دافق، تمسح حباته بمنديل ورقي.

ـ هكذا يا مها، توجعين قلب أمك، وتطعنين الأب في أعز ما يملك؟

والأخوات تجاهلنها تمامًا، مكثن في بيت الأب يتحركن بين أشيائه بقلوب مرتعشة تكتم فرحة العودة، وتخفي فضيحة الهروب.

- لست الوحيدة التي أجبرت على الزواج، كلنا في (الهوا سوا) ولكن الحياة تفرض أمورًا لا بد من التواؤم معها.

ومها لم تستجب لما قيل لها، ظلت تحدق في الوجوه الغريبة التي تحيط بها، وتحادث أطيافها بحماس. والعم حلمي، اقتعد الكنبة، وأطلق ما ظل مكتومًا بصدره:

- يا مجرمة .. من في أسرتنا فعل فعلتك؟ لا أحد، أنت الوحيدة التي خرجت على الإجماع. ماذا فعل أبوك حتى يعاني ما يعانيه الآن؟ علّمك وشق على نفسه ليعد لك بيت الزوجية الذي لا يليق بك، فمصيرك إلى الهلاك، أو تتركين هذا البيت لتلحقي بالعمل في الملاهي الليلية.

كانت مها تطرق، ولا تجيب، تنكس رأسها إلى أسفل، ثم سرعان ما ترفعه إلى أعلى لتعاود الحديث مع تلك الكائنات التي نهضت من مواقعها البدائية القديمة. كأن الكلام موجه لغيرها، ولما وقعت نظرتها الثابتة على عينيه، ارتعد جسده ولم يتحمل تلك النظرات التي ترسلها عينا بنت لم تعد تتعرف عليه، ولا على أخواتها اللائي يحطن بها.

فقام إلى الشرفة ليشعل سيجارة تخفف من توتره الحاد. «المصيبة أن تكون الفتاة قد جُنت، ولا يمكن استعادتها» إن حالها تبدل ١٨٠ درجة، فهو ينظر إلى مها أخرى غير التي يعرفها.

تقيم في شقة بين أسرتها، دون أن تطلب شيئًا بذاته، وإذا أقبلت

عليها الأم بها (يرم عظمها) تمجه نفسها، فتعود بالأطباق إلى المطبخ، لقد هبط وزن البنت في مدة غيابها المحدودة، وراح جسدها يهزل، فيضمر خداها الموردان، وتجف شفتاها الريانتان بريق لا ينفد.

قضوا الليل حولها، في محاولة مجهدة لاستعادتها دون فائدة، تعلو بصوتها فجأة موجهة اللعنات لشخص لا تطيقه.

وتتحدث بمحبة وشوق جارف للشخص الآخر، ثم إنها لا توجه لهم حديثًا قط، قطعت الصلة بالأسرة، لا توجه العتاب إلى أحد منهم، بل تحادث هؤلاء الذين يحيطون بها في الشارع بعد سقوطها، لإطلاعهم المتطفل على عريها، دون أن يقبل أحد لإنقاذها.

وتخرج الجملة غير مكتملة، وغير واضحة «قلوبكم حجر أسود، صوان، أيها (وأرادت أن تصفهم بالكلاب) ولكنها نسيت الكلمة وقالت يا قطط، الخبث، تمزقون سراويلي لتنظروا إلى ما بين فخذي يا سفلة».

ثم تصمت مطرقة نحو الأرض، تحدق في نقوش السجادة، وتعد مربعات الزخارف بإشارة من أصبعها دون إبداء أي إشارة للملل.

لقد شعروا أنها أجهدت عقلها طويلًا فأخذتها أمها إلى الفراش، بمساعدة من الأب الذي خرج من حجرته دامع العينين، والعم حلمي الذي أصر على البقاء معهم حتى تستعيد ذاكرتها.

ـ أنت الآن مجهد فعد إلى زوجتك وبناتك.

ـ لا يهم .. إنني ادعيت لهم بأني في مأمورية عمل بمديرية التعليم بالمنصورة.

ـ كما ترى.

فردَت الأم غطاءً خفيفًا على بدنها، جمعت أطرافه بحرص، ثم جلست إلى جوارها، تمشط بأصابعها شعرها الناعم، وتمسح العرق عن جبهتها والبنت لم تكف عن الكلام، أخذت أشباحها معها، تصرخ فيهم مرة، وتحادثهم بهدوء مرات.

ـ عين ماما يا مها.

قام العم حلمي ليطفئ نور الحجرة

ـ الظلام قد يساعدها على النوم.

ـ هذا صحيح.

وظلوا في صمتهم، ينتفضون إذا انتفضت وتسكن نفوسهم إذا تحاورت بحنو تتسم به شخصيتها المحبة.

بعد ذلك أنصتوا لتردد النفس الهادئ، فتأكد لديهم سقوطها في النوم. وكان الأب والعم قد تمددا على السرير الآخر، بعد فترة وجيزة صخبت الحجرة بشخير حلمي، وكان كلما حدث هذا، يهزه أخوه هزة خفيفة، حتى لا يؤدي إلى استيقاظها، فيقوم من نومته منتفضًا، ماسحًا شدقيه من البلل مرددًا الشهادتين.

والأم ظلت في موقعها، لا تفارق الكرسي الموضوع على رأس الفراش، لا ترفع عينيها عن البنت النائمة، يسح الدمع من مآقيها مخفية إياه عن عين الأب، ومنصتة إلى صوت النفس الهادئ، المستكين.

* * *

(٨)

في ذاك اليوم، قبل ثلاثة أيام تقريبًا، عاد سيد عبيد من عمله، بالإدارة الصحية، في هذه المدينة التي تنتمي إليها قريته، كان قد أصدر الأمر لها قبل ذهابه إلى مكتبه:

ـ اطبخي لنا دجاجة، واعملي معها (محشي).

ـ حاضر

ـ ولا تنسي تحمير الدجاجة.

فعرفت أنها ستقضي ليلة من العذاب، لا يراعي آلامها بعد العمل، وحاجته إليها تدفعها للقيء خلسة، قلة خبرته، وغشمه، مقرونان بشهوانية حيوانية، لا إنسانية فيها، المرأة مجرد فرج يتلقى السياط، دون عاطفة ما، كانت ستسمح لها بنسيان خالد، يومًا إثر يوم، ولكنه لا يمنحها الفرصة أبدًا، حتى إذا صرخت من الألم ظن أن هذا تعبير عن اشتعال غريزتها، وهي ابنة مدينة تلم بفنون الجنس المجنون، حاولت التدخل في تغيير سلوكه تجاهها، لكن هيهات، متى كان للمرأة رأي في هذا الشأن، يكتفي بتجريد جسده من ملابسه، وخلع كل قطعة تسترها، ويبدأ اللعق المقزز، والعض

المؤلم في حلمتي الثديين ثم ينتهي حين يصبح الأمر ضاغطًا على أوتار جسده المشدود، لا مفر، من تسلق هضابها، وينطح كالخروف، وينهق كالحمار ثم يصهل كفرس حرون، قطعت المسافة التي حددت لها سلفًا.

يجمع هدومه المتناثرة، مغادرًا الحجرة إلى الحمام ليزيل الجنابة التي هي مجرد دنس الخطيئة التي تشيع في أنحاء البدن، ويعود إليها بلحية ملمومة الشعر بفعل البلل، وقبل أن يعطيها ظهره للجانب الآخر كأنما خشية من الشيطان الذي ينفث حممه في أجزاء الحجرة، كما ينفثها في جسديهما يقول لها:

ـ قومي شطفي بدنك من النجاسة.

فتقوم لا تنفيذًا لأمره، بل هروبًا من حضوره الثقيل، حين تعود إلى فراشه تجده (في سابع نومة) يشد أنفاسًا قوية تخلخل هواء المكان.

بعد أن تأكدت من خروجه إلى عمله، بعد سماع فرقعات (الشكمان) لفيزبا صدئة، لا يريد تبديلها رغم كثرة تردده على الورش لإصلاح أجزائها العتيقة، وضعت العباءة السوداء على جسمها وأسدلت الحجاب على وجهها، وخرجت إلى الشارع قبل أن تشعر بها حماتها.

وقفت على شاطئ نهر (أبو الأخضر) بانتظار الميكروباص، فهذا الطريق يمر عليه أتوبيس وحيد، يأتي (على كيفه) ليس له موعد محدد، لذا فإن أهالي القرى يلجئون إلى وسائل أخرى ومنها (التوك توك) ليأخذهم إلى المركز الذي يتبعونه.

انحشرت بين الركاب، مخفية وجهها، فلن تكشفه إلا عند الوصول إلى بلدتها.

وانطلق بها في سرعة جنونية، لا يراعي المطبات الأسفلتية التي تحمي أطفال القرى من السرعة المفاجئة، فكانت ترفع إلى أعلى حتى يمس السقف رأسها، وتنهبد إلى أسفل في سقوط يحطم العظام، فرحت بفعل السيارة.

ـ يمكن إنهاء موضوع الحمل بهذه الوسيلة.

في المدينة تبدلت وسيلة السفر، حيث ـ هنا ـ يمكنها أن تحظى بأكثر من أتوبيس وميكروباص، أو حتى سيارة نصف نقل، أسدل عليها صاحبها غطاء سميكًا من المشمع.

عند وصولها إلى البلدة لم تذهب إلى بيت أبيها مباشرة، «فلأنتظر حتى أذان المغرب، فالليل ستر»، وقضت مدة طويلة على كرسي المحطة.

«ربما مر من هنا بالصدفة، فهنا موضع لقاءاتنا السابقة، إذا كان حبه لي لم يزل مشتعلًا في قلبه لشعر بقدومي إلى مكان الصبا، ليتذكر مكان لقائنا».

لكنه لم يمر طيلة النهار، برغم المجهود العظيم الذي دفعها لتتبع العابرين على الرصيف، من الأغراب أو من أهل البلدة. ولم تتخل عن حجابها الأسود حين اتخذت طريقها باتجاه البرجين، عمارتان عاديتان، أطلق عليهما أهل البلدة هذه التسمية بعد سقوط برجي نيويورك، صعدت طوار أحد الأبراج لتبحث عنه في (المول) فشباب البلدة يجتمعون في هذا المكان، وهو ليس (مول) بالمعنى المتعارف عليه إنما هو نزوع نحو التشبه بالمدن الكبيرة، هنا اللقاءات الغرامية الحذرة، وهنا مقهى، يسمونه (كافيه) حيث الأولاد في ناحية يدخنون الشيشة، وتجلس البنات في الناحية الأخرى،

يلقين النظرات المسروقة تشتهي نفوسهن اللقاء المشترك،ولكن لا تجرؤ على هذه الفعلة إلا الشجاعة منهن، أو يكون بدوافع أخرى أهمها تخفيف رقابة الأهل. ولم تجده هناك.

قالت: حان الآن موعد الذهاب إلى بيت الأب، فلأسترح قليلًا، ثم أعود للبحث عنه.

وفتحت لها أمها التي اقتعدت كرسي الأنتريه تتابع المسلسل الذي يذاع قبل كل مغرب.

هذا ما حدث لها، بعد مغادرة سيد عبيد الشقة إلى الإدارة الصحية.

أما هو فقد عاد من عمله (قاطع من الجوع) لا يدق جرس الشقة أبدًا، ولا يطرق بابها، يقتصر فعله على الدفع بالباب بارتجاجات كم أزعجتها ويسمعها، وهي تأتي من الداخل صائحة:

ـ حاضر .. طيب.

ـ ماذا تفعلين وأنا أضرب على الباب منذ فترة؟

ـ كنت بالمطبخ.

ـ هاتي لنا لقمة.

أمر نهائي، لا رجعة فيه، وويلها لو تأخرت.

ـ لو كنت موظفة لضعنا ولا نجد ما نأكله في موعدنا.

ـ وظفني.

ـ ألا أملأ عينيك .. حتى أحتاج للقرشين اللذين ستحصلين عليهما

من الحكومة، ثم انتقال ومجهود، وملابس، وخلافه، هذا أكثر راحة لي ولك.

ويجلس على المائدة ينهش نهشًا، لا يأكل بتروٍّ أبدًا، ويظل يدفع ما ابتلعه بماء القلة التي يحب شفط مائها بصوت يسمعه (سابع جار) وتتناثر حبات الأرز على شعيرات لحيته فتدعه، حتى ينتهي، ولا يعزم عليها، أو يحاول إطعامها، كأنما هي تطبخ لفرد واحد، والآخر لا وجود له، يغسل وجهه على الحوض مخترقة أذنيها أصوات المضمضة، والتنخم العميق والبصق دون داع، وتكتفي هي بمتابعة ذلك باشمئزاز يدفع المعدة لدفق محتوياتها حتى تشعر بمرارة مكوناتها.

اليوم يعود مؤملًا نفسه بالدجاجة المحمرة والمحشي الرائع، ارتج الباب لهزاته، ولكن لا صوت هناك، لم يسمع صيحتها التي اعتادها.

ـ حاضر .. طيب.

أعاد دفع ضلفتي الباب، لا مجيب، فضغط بأصبعه الخشنة على زر الجرس، ليأتيه صدى الصوت بذبذبات كهربائية، ينتفض لها الداخل، ولا مجيب. ناداها باسمها، علها أنهت الطعام وذهبت إلى الفراش في الحجرة الأخيرة من البيت ولا مجيب.

كانت أمه قد خرجت إليه من بيتها المجاور بعد أن سمعت تكتكات الفيزبا، وفرقعاتها عبر ماسورة (الشكمان).

سألها: مها ليست في الشقة؟

ـ لم أرها منذ ليلة الأمس.

ـ هل ذهبت لزيارة صديقتها الوحيدة في القرية؟

ـ ربنا أعلم.

فتح الباب بمفتاحه، ونادى عليها، ولا مجيب. دخل حجرة النوم فوجدها مرتبة، ونظيفة، والصالون ساكن بكراسيه المذهبة اللامعة في الضوء القليل.

كل شيء في مكانه، كما تركه في الصباح، ولكن صاحبة البيت غائبة، وهذه فعلتها الأولى منذ قدومها إلى قريته، احتار، ماذا يفعل؟

عاد إلى أمه، ليسألها: هل تشاجرتما اليوم؟

ـ أقول لك أنا لم أرها منذ عدت بها إلى شقتك.

ـ هي لا تستطيع الذهاب إلى بلدتها وحدها، فهي تجهل الطريق.

ـ من يسأل لا يته.

ـ نعطيها مهلة للعودة .. ربما شعرت بالمرض فالحمل يجهدها، وهي تحتاج لمن يخدمها.

ـ أنت حر.

ـ جائع يا امَّه.

ـ تعال لأقدم لك الغذاء، ثم نفكر في الأمر بهدوء، حتى لا يشعر أهل القرية بغيابها، فتصير فضيحة تمس سمعتك، وسمعة العائلة كلها.
واستجاب لها ..

ما الذي غير موقفها منها، إنها لا تطيقها، محملة بموروث زائف عن

بنات المدن اللائي يركبن أزواجهن، ويسحبنهم كالخراف، ليبعدنهم عن الارتباط بعائلاتهم، بوسائل يجدنها كثيرًا كالغنج، وفنون التزين بالأصباغ، والخدمة على العيون لتصير أكثر فُجرًا، وتظل الشهوة متقدة في أجساد الأولاد، أين هذا من القرويات اللائي لا يخدمن على أزواجهن، فلا يعرفن حضنًا ولا قبلة، يكتفين بترك الرجال يفعلون ما يرغبون كأن الشهوة تخصهم وحدهم، وتقول لزوجها بغلظة:

ـ لما تخلص غطيني الله يسترك.

مما يصيب الرجل بالإحباط، وعدم اكتمال ما بدأه ويقول في سره: «لو نمت مع جاموسة لشعرت برغبتي فيها».

وحين عرض على أمه فكرة الزواج من بنت مدينة أبوها كان صديقًا لزميل يعمل معه بالإدارة الصحية، أصاب أمه الرعب:

ـ لم تخلق يا بني لبنات المدن، أهل قريتنا نعرف أصلهم من فصلهم.

ولما قص عليها ما يتناقله الرجال في جلساتهم الخاصة، وينقل لها حكاية صديقه الذي تتركه زوجته يفعل بها ما يشاء بينما هي (تأكل الرز مع الملائكة).

هؤلاء ناقصون .. الزواج ليس فراشا فحسب، إنه حياة كاملة، وعلاقات تقوم على الاحترام، ثم المهم أننا هنا (نعرف الحلوة من الشينة) وإذا تهورت واحدة من بناتنا، وتعاركت مع زوجها، نرجع للأب، أو العم، أو الأخ أو كبير العائلة، حتى يعطي الزوج حقه، أما هذه التي تأتي من مدينة نائية، كيف نعالج الأمر معها، إلى من ستلجأ؟

إن لها أهلًا كأهلنا، نطرح هذا الأمر، وهم لن يقبلوا العيبة أبدًا.

أرى أن تتركها يومين أو ثلاثة كعقاب لها، ثم تذهب إليهم هناك، ولا تخضع لأمر من أوامرهم، بنتكم هجرت بيتها دون إبداء سبب من الأسباب، فلتعد إليه دون استجداء.

حاضر يا امَّه.

ونقل حركته ما بين الإدارة وبيت العائلة، يأكل من طعام أمه، ثم يذهب إلى شقته لقضاء قيلولة تطلبها النفس بشغف.

ـ طبيخ أمك له نَفَس.

ـ طبعًا.

بين ظلال الشقة يستحضر مها، بروحها العذبة، ورهافة حسها، وجسدها، ويمد يده في الفراغ فلا يجدها، يجعل من الوسادة بديلًا، فيستنشق أنفه ريحها، الذي يهيجه، ويضاعف رغبته فيها عند اللقاء بها.

قضى أيام الغياب في عذاب الحاجة إليها أول ما يأتيه من وجودها الحي، جسدها الذي يخوض فيه بلا رادع، ثم تأتيه لهجة مدينتها التي تتسم بليونة محببة، كل جملة فيه هو غنج، حتى لو لم تقصد هذا.

ثم قرر الذهاب إليها، ليعود بها رغمًا عنها وعن أهلها، حقه كزوج منحته الشريعة سطوة ذكورية، يتباهى بها، (ونسي أن التشريع الجديد سمح للزوجة بالخلع إذا استغنت عن مطالبها، فلا إجبار، ولا إلزام، هذا يملك حق التطليق وهي تملك حق الخلع، وعلى الطرفين الخضوع ويكسب صاحب النفس الأطول. فهي حسبة مادية صرف، المستغني لا يبقى على شيء، والمتطلب يجاهد من أجل الوصول إلى أقل الخسائر الممكنة).

ضغط على زر الباب بعد أن طالع اللافتة المعدنية التي تعلن عن اسم صاحب الشقة (مصطفى الشيخ ـ مدير حسابات بالوحدة البيطرية) وفُتح الباب على أسرة الأستاذ مصطفى جميعها فضلًا عن حضور الأستاذ حلمي.

أراد أن يدخل مع الداخلين حجرة الأولاد غير أن الأستاذ حلمي جره نحو حجرة الصالون، فشعر أنه قد صار غريبًا بين أهل البيت ثم جاءه صهره، فسلم عليه بيد باردة.

رد الباب وراءه، وانعقدت الدهشة على وجه سيد عبيد.

وظل صهراه على حالهما، لم ينبسا بكلمة، وقعا في الصمت تمامًا، انتظر سيد فترة حتى يبدأ الكلام، ولكن أحدًا لم يبدأ فطرح سؤاله بذهول، يود لو يعرف السبب ومهما كان القرار.

ـ ما الحكاية بالضبط؟

ـ أبدًا، مها مريضة، وهي بحاجة إلى الراحة من زحام الزائرين.

ـ ألم تعرضوها على طبيب؟

ـ وهل سنتركها هكذا دون مراعاة؟!

ـ الأمر خطير .. هل فقدت ما في بطنها؟

ـ هذا ما يهمك فقط (هكذا صرخ فيه حلمي) فأشار إليه أخوه ليلتزم الهدوء.

ـ ألم يحدد الطبيب نوع المرض؟

ـ قال إنه مرض نفساني.

ـ نفساني؟ لقد كانت عادية حتى صباح اليوم الذي هجرت فيه شقتها.

ـ هذه إرادة الله.

ـ هل تسمحوا لي برؤيتها قبل عودتي؟

ـ هذا حقك.

وذهب الأستاذ حلمي ليخرج أخواتها من الحجرة، وبقيت الأم معها تعصر لها الليمون في كوب طويل.

ـ يا رب يا ساتر.

ودخل الحجرة، فوجدها على ذهولها، لم تنظر إليه، وحين اقترب منها ليمسك بكفها لم تتعرف عليه، كانت لا ترى شيئًا غير أشباحها الغامضة، لم تزل على حوار معهم، كان ينصت باندهاش، وهي تطلق السباب لهؤلاء الذين أسقطوها عمدًا، على أرض مسفلتة تمرق منها السيارات على الجانبين، ثم أزاحت يد أمها، لترفع الوسادة إلى صدرها، تقبلها، وتحتضنها بلهفة العاشق.

ـ لا إله إلا الله.

وعاد سيد عبيد بظهره إلى الوراء، لحق به حلمي ليفتح له باب الشقة.

ـ سأعود للزيارة غدًا أو بعد غد.

وقال الأب وهو جالس في مكانه لم يفارقه.

ـ لا تتعب نفسك حين تستعيد حالتها سآتي بها حتى باب بيتك.

ومال حلمي إلى أذنيه جامعًا فمه بكف يده.

ـ أريد إخبارك بشيء حتى لا تصاب بالمفاجأة.

ـ خير إن شاء الله.

ـ لقد فقدت جنينها وهي في الطريق إلينا.

ـ ماذا تقول يا حلمي؟

ـ كما سمعت، لقد جاءتنا وهي تنزف، والدم ناشع على ملابسها.

ـ هذه مصيبة كبيرة.

ـ أنت رجل مؤمن.

ـ قتلت الولد حتى لا تدوم الصلة بيني وبينها .. لن أغفر لها هذا.

واندفع خارجًا إلى (الفيزبا) التي ضج موتورها، فقضى على سكون المكان. وخرجت من صدر العم تنهيدة، وكأنما ألقى حجر الطاحونة الرازح على صدره. عاد أفراد الأسرة ليجتمعوا حولها، فرأوا طيف بسمة افتقدها وجهها منذ رحيلها عن بلدتها. فاستجابت وجوههم بإشراقة الفرح، بعد أيام من القلق الممض.

قامت لتقف على السرير فاردة ذراعيها عن آخرهما، كانت ترقص رقصة بدائية لا يعرفون مصدرها قالوا: ربما زادت عليها الحالة. ولكنها قطعت الشك باليقين، حين اتجهت نحو باب الحجرة تتبعها أمها، وسألتها: إلى أين يا مها؟

ـ الحمام.

فارتاحت قلوبهم إلى حين، ها هي تستعيد المكان، وتعرف مكان الحمام دون مساعدة، ولكن الأم ظلت منصتة إلى الداخل، حتى لا تسقط على الأرض، ولكنها وفقت فيما أرادت، وعادت لتفرد طولها تحت الغطاء فطلب الأستاذ مصطفى من أخيه العودة إلى أهل بيته، لأنه بالتأكيد يفتقدهم منذ إقامته في بيت أخيه، فاستجاب له.

ـ على كل حال سأتابعكم بالتليفون ليطمئن قلبي.

ـ كتر ألف خيرك.

وخرج مستنشقا هواء نقيًّا، لم يشعر به منذ يومين، وعادت الأخوات إلى بيوت أزواجهن مطمئنات إلى استعادة الأخت.

وبقي الأب والأم إلى جوارها، يرقبنها من حين لآخر بعد منتصف الليل وبعد أن سقط الأب في غفوة لذيذة سمعت الأم صوتًا واهنًا، يتردد في حلق مها:

ـ جعانة يا ماما.

ـ حبيبتي .. سأحضر لك الطعام في الحال.

رفعت الأطباق على صينية دائرية، وأزاحت الغطاء عن الجسد المنهك، سعدت البنت لأنها ـ أخيرًا ـ ستطعم أطباق أمها الشهية، فقد طبخت لها كل ما تحب، وانكبت على المائدة الصغيرة تأكل بشراهة. والأب استيقظ على حركة الخروج والدخول ولم يرد التدخل فيما هي مقبلة عليه مع أمها، ظل يتابعهما بعينين مغمضتين، وهو يلوك بلسانه

حلاوة العودة إلى الحياة، لابنة عزيزة عليه. حين تستعيد كامل حيويتها سيكون له حوار آخر معها، لأنها ـ حتى اللحظة ـ لا تدرك جرمها، ومدى ما أثر به عليهم.

قطعت طعامها إلى حين، لتلقي السباب بلا حرج لبشر مشوهين يحيطون بها لإخافتها، فيبدون لها برءوس مبتورة، وأجساد سقطت أطرافها:

ـ أنا لا أخافكم يا أولاد ....

وتطلعت إلى الأسوار الكئيبة وإلى الشعلة التي تتقد أمامها على الضفة الأخرى من (الحلوة):

ـ أنا لا أخاف طالما أنا في حماية حبيبي.

ونظر الأب إلى زوجته بحسرة، فقد تأكد لديه أنها لم تنسه، ولن تنساه، وعجز عقله في العثور على حل، في تلك الأثناء كانت ترفع الوسادة إلى حضنها. ثم هلل وجهها بفرحة غامرة، حين رأت المركب بالمجدافين يقبل نحوها في ماء ساكن، وبرغم أن صاحبه يطلق قوته بأقصى مدى ممكن، يبقى الماء على سكونه، بلا صوت، لا شيء غير موجات صغيرة، تنزاح أمامه، تشبه التجاعيد الكثيرة على وجه العجوز، الذي يضيئه نور شمس خفية، ليس لها وجود في الأفق الذي همد تمامًا يقطعه من حين لآخر صرخة طائر أبيض كبير يحلق من ضفة إلى أخرى، أو طيور صغيرة انتشرت بين الخضرة النادرة للضفة التي هبطت منحدرها بانتظار صاحب المركب، قال لها:

ـ اركبي.

وارتاح قلبها لسحنته المضيئة.

ـ هل أنت من الملائكة؟

ـ أنا بشر مثلك، أقبل في الوقت المناسب، لأنقذ الأرواح المعذبة، وأمسك بيدها ليعاونها في تسلق المركب، جلست وراء ظهره تتابع ضربات المجدافين بيد قوية رغم الشيخوخة التي جففت ظاهرها. كانت فرحة بنسمة الهواء، وسعيدة بالاطمئنان إلى بطلها المنقذ، ومبتهجة بتغريد الطيور.

ـ هل هذا المركب سيعيدني إلى بلدتي؟

ـ لا تكثري من الأسئلة إنك بيد أمينة، ألا يكفي هذا؟

وظلت الدهشة معقودة على وجه الوالدين، وهما يتابعان حركة اليدين اللتين تدفعان قاربًا وهميًّا.

قالت أمها لتطمئن زوجها:

ـ المهم أنها طلبت الحمام، واستعادت شهيتها للطعام، غدًا ستتحسن أكثر وتعود إلينا بكامل عقلها.

ـ إن شاء الله.

* * *

(٩)

وجاء الغد فإذا البنت تستعيد ملامحها الرائعة، وتستعيد معها روحها العذبة التي تدفع الآخرين إلى الوقوع في غرامها. بدأت تتحرك في الشقة بحرية، تتحدث مع الأم براحتها، أما الأب فقد ظلت على تحفظها معه، تعاني حياءً وخجلًا مما فعلت وقد أدركت تفاصيل رحلتها إلى القاهرة، مع الحبيب الذي لم يشغله من أمرها غير (الاصطياد في الماء العكر) حاولت إشغال عقلها بتصفية الحسابات مع كل شخص على حدة غير أنها شعرت بالإجهاد ولكن سيحدث هذا يومًا ما ولتبدأ بخالد الذي ألقى العهود وهو عاجز عن الحسم، وقالت لنفسها «إذا قُدِّر لي الحصول على القوة التي تسمح بلقائه، سأحاول الوصول إلى حل نهائي» أخذتها أمها إلى الشرفة لتتلقى شمس الصباح الواهنة، بعد أن صنعت كوبين من الشاي ووضعتهما على السور المنخفض.

ـ خطفت قلب أمك يا مها.

ـ لم يكن الأمر بيدي يا ماما.

ـ أعلم يا حبيبتي.

كان الأب يتقلب بكسل على فراشه داخل الحجرة.

ـ إن الأمر يبدو لي كأنه غيبوبة كاملة، أو كأنه موت مؤقت، لم أدر ما حصل بالضبط، انفصلت الذاكرة عما يدور حولها.

ـ كنت تتحدثين إلى بشر يجتمعون حولك، وينظرون بتطفل إلى عريك، بعد أن سقطت في شارع مجهول.

ـ كل هذا لا أدركه الآن .. كأن الروح ذهبت في رحلة دون إرادة مني، ثم عادت إلى مستقرها، كل ما أعرفه نومي في هذه الغرفة، واستيقاظي المبكر لأكتب الورقة إلى أبي، ثم عودتي وأنا في هذا الفراش ليلة أمس. أراد الأب أن يطرح الكثير من الأسئلة عليها، ولكنه آثر الصمت، فهي ستبوح لأمها بما لا تستطيعه في مواجهته.

ـ ألا تذكرين أحدًا من الزائرين؟

ـ كان الجميع بالنسبة لي مجرد أطياف باهتة بلا ملامح.

ـ زارك العم حلمي، بل هو الذي أتى بك من شقة مصر، وزارك زوجك سيد عبيد ليلة أمس، وقلنا له إنك فقدت جنينك، وزارتك أخواتك جميعًا.

ـ وهل فقدته بالفعل؟

ـ طبعًا، بعد وصولك، وأنت في كامل غيبوبتك وجدنا بركة من الدم تنشع على الفراش، ففرشنا المشمع، ثم تلقيته عنقودًا من الدم المتجمد.

ـ لم يعد يربطني به شيء.

ـ وهذا لن يمنع تردده للزيارة، اليوم، أو الغد، أو بعد غد، وفقًا لظروفه الخاصة، وربما فرض عليه الطلاق، فطالما هي حريصة على ألا تحمل منه ما يبقى من اسمه، ونسله، فلم البكاء عليه والتمسك به.

ـ خير وبركة.

واضطر الأب إلى النهوض من فراشه، أقبل نحوها وقبل وجنتيها بحنان، وفرحت بهذه القبلة جدًّا. وقضوا النهار في الحديث حول المستقبل، وما سيأتي به فهو مجهول للجميع، زارهم العم حلمي، وعبر عن سعادته لاستعادتها لياقتها، وزارتها الأخوات، وخرج العم حلمي حينما سمع صوت الفيزبا التي ركنها سيد في مدخل العمارة. لم يجد ما يقوله، خاصة حين وجدها لا ترفع نظرها نحوه أبدًا، فاستأذن في الحال فسمحوا له دون تشبث بالبقاء. وأكد عليه الأب ما ردده من قبل.

ـ حين تستعيد لياقتها كاملة، سأحضرها حتى باب بيتك.

فتغيرت نفسها، وانسحب الفرح الذي أضاء وجهها على مدى النهار.

وخرج الأب بحجة أنه يريد الجلوس مع أصدقاء المقهى وهو ـ في الحقيقة ـ يريد طمأنة أم كريم، وقضاء السهرة معها، فهي الوحيدة القادرة على بث السعادة في قلبه، وعادت البنات إلى بيوت أزواجهن، ودخلت الأم غرفة النوم لتريح بدنها المرهق، فقد قضت اليوم بطوله معها، كما أن الزيارات المكررة لم تسمح لها بالراحة.

ارتدت مها عباءتها السوداء، ولفت وجهها في الطرحة الخفيفة، وبدأت رحلة تشبه تلك التي مرت بها أول يوم جاءت فيه إلى البلدة.

كانت تسير بلا وعي منها، جاهلة بما تفعل، كل ما يشغلها أن تلتقي به لتقطع عرقًا، وتسيل دمًا. الجديد هذه الليلة هو شجاعة قلبها، لم تعد كالمرات السابقة خاشعة له، ذليلة في الاستجابة إلى رغباته، إنما ترى أن عليه التزامًا ما تجاهها، وعليه التمسك به، فهو وعدها بالزواج إذا تم طلاقها وها هو على وشك الوقوع، ويمكن إقناع الأب بسهولة إذا أحس تجاهه بالجدية التي تساعد على تأسيس بيت، وها هي تخسر جنينها في أثناء الرحلة المشئومة معه.

اتجهت نحو البرجين، فوجدت الحال على ما تركته قبل السفر، نفس الزحام، حول النور المبهر، والشبان والشابات في مهارشات خفية، تدل كل حركة على عمق العلاقة بين الصديق وصديقته، ولكنها لم تعثر عليه، ولم تجد أحدًا من شلته التي يقضي الليل معها حول دخان البانجو والحشيش، وصعدت الدور الثاني لتجد عاطف أبو الخير منحنيًا على سور (المول) المطل على السلالم المتعرجة، وتقف ريم إلى جواره، هي لم تشعر بوجود عاطف أثناء رحلة مصر، وظنت أن آخر لقاء به ليلة أن رأت خالد مع صحبته، ليلحق بها عند المحطة.

دفعت ريم كوعها في جانب عاطف مشيرة إلى وجودها فارتبك عاطف، وظن أنها ستعاتبه لأنه السبب في تعريف أهلها بمكان الشقة، ولكنها اكتفت بإلقاء تحية المساء بأدب، وبهدوء، فاجأ عاطف وريم معًا وسألته:

ـ ألم تر صاحبك الليلة؟

ـ لا ..

ـ ألن يسهر عندك الليلة؟

ـ لا أظن..

ـ المهم إذا رأيته قل له إني أنتظره على رصيف المحطة.

ـ حاضر.

وعادت من حيث أتت، تسير بين الزحام، تصعد إلى المرتفع الذي يتمدد عليه شريط القطار.

كانت قد دخلت كتلة الظلام التي يشكلها بيت ناظر المحطة المهجور. كانت تعبر القضبان بحذر، وتدوس على قطع الدبش الأبيض المختلطة بكتل من زلط ناعم.

صار ظهرها بالكامل عكس اتجاه بيوت البلدة، ووجهها نحو الباب المغلق بجنزير صدئ. وقبل الصعود إلى الرصيف بمسافة كبيرة جاءتها الطعنة المفاجئة، كانت الضربة من القوة بحيث نفذت إلى القلب مباشرة، ولم تستطع الوقوف على ساقيها، كما لم تستطع الالتفات نحو الطاعن لتتعرف عليه. وسقطت في بركة من الدم الحار، وهي عاجزة عن الصيحة التي تستدعي لها من ينقذها، وضربات القلب راحت تهن ثانية، بعد ثانية رغم قدرتها على سماع صوت النعل الهارب من مكان الحدث.

* * *

(١٠)

من الذي قتل مها؟

ظل السؤال معلقًا، ولم يُعثر على دليل يقيني حتى اللحظة، هذا حدث كبير بالنسبة لبلدة صغيرة، إن الأهالي يهتمون به أكثر من اهتمامهم بالحروب التي تقع في الدول المجاورة، فهو حدث يقع في دائرتهم الصغيرة، حدث نادر، لا يتكرر بسهولة، قد يقص أحدهم وقائع حقيقية فلا يجد آذانًا مُصغية أما إذا أضاف إليها ما يتجاوز الخيال تصبح القصة مثيرة، وقادرة على الإضافة من لسان إلى لسان.

قد لا يلمون بالشخصية إلمامًا كاملًا، إذا مارست حياتها العادية، ولكن في واقعة كهذه يقلبون تاريخها، والخفي من شخصيات العائلة.

اكتشاف الجثمان وقع بالصدفة، رجل غريب نزل من قطار المنصورة، لزيارة صديق له من أهل البلدة ولأنه كان محصورًا، ولا يريد الدخول إلى مرحاض القطار الذي يحرك أحشاءه بتقزز، آثر أن يميل جهة اليمين، نحو سور بيت ناظر المحطة مستترًا في ظلام الأشجار الساقطة من خلف الأسوار المتآكلة، بعد أن انتهى، أراد أن يتخذ طريقه نحو الشارع

الرئيسي، حسب وصف صديقه، فإذا هو يفاجأ بالعباءة السوداء متناثرة حول جسد يسبح في بركة دماء، لم تجف بعد. فصاح بقوة وهو يقترب من السور الحديدي الذي يحجز بيوت البلدة عن شريط القطار:

ـ يا أهل البلد .. قتيل .. قتيل.

فأسرع إليه أصحاب المحلات الذين يتهيئون للإغلاق للعودة إلى البيوت، قلبوا البنت ليتأملوا وجهها، تعرف عليها البعض، ولم يتعرف عليها الآخرون. وطلب أحدهم من الرجال:

ـ اذهب أنت إلى بيت الأستاذ مصطفى الشيخ لتعرفه وأنت اطلب عربة الإسعاف من تليفون المحل.

وجاء الإسعاف بسرعة، أمسك المسعف الرسغ، فوجد النبض متوقفًا، فقال بحسم لا رجعة فيه:

ـ لن نستطيع رفعها إلى المستشفى، البنت ميتة ولا تعامل مع الموتى، بلغوا المركز. وقدمت قوة من المركز على رأسها ضابط بثلاث نجوم، وكان الأستاذ مصطفى قد قدم مع الأم والعم حلمي، وقفوا جميعًا يعبرون عن عجزهم. قال الضابط:

ـ إن أحدهم طعنها من الخلف.

ووجه السؤال للأب

ـ ترى من قام بهذه الفعلة؟

ـ الله أعلم.

وقال العم وهو يضرب كفًّا بكف:

ـ حسبي الله ونعم الوكيل.

والأم لم تكف عن البكاء المكتوم، تمسح دموعها بمنديلها الورقي الصغير.

ـ من له مصلحة في قتلها؟

ـ خالد فخر الدين جودت، وزوجها سيد عبيد.

فطلب الضابط بسرعة إحضارهما إلى المركز. وطلب رفع الجثمان إلى بيت أبيها.

وحينما عثروا على الشابين، طلب المركز سرعة إحضار الأب، والعم، وواجههما الضابط بالاتهامات، فخالد قال: ليس لي مصلحة في قتلها، فهي الحبيبة التي وعدتها بالزواج. وكاد الزوج أن يوجه صفعة على وجهه، بيد أنه تماسك، وسيطر على انفعالاته، وقال أيضًا: أشك في الأب والعم للدفاع عن شرفهما، فهما أمسكا بها وهي مقيمة معي في القاهرة بعد هروبها من بيت الزوجية. كانت هذه الحقائق مفجعة بالنسبة لسيد.

وحين وجه الضابط السؤال إلى الزوج طرح نفس الفكرة تقريبًا، وأكد أن للأب والعم مصلحة في إنهاء حياتها، خاصة بعد هروبها مع هذا الرقيع، وتركها بيت الزوجية، كما تأكدا من فُجرها بعد تخلصها من جنينها. وأنا لم أقدم على أي أذى يذكر، بل كنت سعيدًا بالارتباط بها رغم اعتراض أهلي، لم أُهنها، ولم أقصر معها كزوج، والدليل حملها بعد ثلاثة شهور، ثم لم أبخل عليها بشيء تطلبه، أنا من وُجهت إليه الطعنة، وأنا المقتول بلا أدنى تهمة.

وأمر الضابط بحجز العم والأب، ليعرض الجميع على النيابة صباح الغد. وبعد صلاة الفجر انطلقت مكبرات الصوت في مساجد البلدة جميعها تعلن رحيلها، تذكر اسمها واسم أبيها، والعائلة، والأنسباء، والأقارب. وقررت النيابة استمرار حبس الجميع على ذمة القضية.

ولم يأت أحد على ذكر عاطف أبو الخير، ولم يطلب شهادته، الزوج لا يعرفه، وخالد لا يضمن شهادته، وبالنسبة للأب والعم خشيا أن يعطيا مزيدًا من التفاصيل التي تضر بموقفهما في القضية، قد يتحدث عن انفعالات العم الزائدة أو يأتي على ذكر السكين الذي سمع به، بل ورأى إشارة أم مها، ليعود العم ليسحبها من أخيه، فيطلب منه البقاء في البيت فيستجيب له،وتلك قرينة ليست في صالحه في كل الأحوال.

وأُفرج عن الجميع بعد خمسة عشر يومًا، بضمان محل إقامته، وانتقلت القضية إلى ساحة القضاء ليحسم فيها. والكل بانتظار ساعة الحسم. وظلت الألسنة على كل المقاهي، وفي كل مجتمع يشمل الرجال أو النساء، وكذا في الأسواق حين يلتقي كل صباح نسوة البلدة لابتياع حاجياتهن من الخضار واللحوم والأسماك، والطيور. يجتهد الجميع في اختيار المتهم الذي يليق بالقضية، ويبرر لمحدثه أسباب حكمه على الشخص.

فمنهم من يقول فعلها الأب أو العم بدهاء، لينتقما لشرفهما، ومنهم من يقول إنه الزوج لأنه الوحيد الذي وقع عليه الجور، بهجرها بيت الزوجية، وإسقاطها لجنينه، فتأكد لديه أنه من المستحيل إقامة حياة سوية معها. ويؤكد الآخرون: إنما هذه لا تأتي إلا من شاب فاجر حشاش كابن فخر الدين، فقد وعدها وأخل بوعده، وصارت على

يقين أنها مجرد لعبة يعبث بها عند الحاجة، لا يأخذها بالجدية التي يستحقها عشقها له.

وصارت المسكينة بعد أن استحالت إلى حفنة من رماد، وهيكل عظمي يخضع للفناء مجرد أمثولة، تقصها الأمهات لبناتهن كنوع من التحذير من مغبة العشق، والاستسلام للشبان المخنثين الذين لا يهتمون بمصائر بنات الناس.

البلدة لا تكف عن الحديث ليل نهار، ولا تحفل بأحزان أم فُجعت برحيل ابنتها غير المبرر، ظلت تقيم في وحدتها، تواري نفسها من التماس مع البشر الآخرين، وهذا ما حدث مع الأخوات، بقين ما بين بيوتهن، ومكاتب العمل، لا يحركن ألسنتهن بحديث ما، يأتين بعد كل عصر ليواسين الأم الحزينة، التي تفاجئهن كل يوم بمنام رأت فيه مها تلهو بين خضرة كثيفة وأنهار يتلألأ على سطح مائها الهادئ ضوء شمس حنون.

فيقررن زيارتها كل خميس، وفي هذا اليوم قالت الأم: رأيتها تمسك بشطيرة من فطير شهي، مدت بها يدها نحوي، قائلة: خذي يا أمي إنه شهي جدًّا. فقلت لها: إنها بحاجة إلى الرحمة، سنصنع لها فطائر رائعة، ونزورها معًا عصر الخميس القادم وقضت الأم تعد أيام الأسبوع بانتظار اليوم والساعة. وكأنما على موعد معها، أو سيتاح لها رؤيتها، ومجالستها.

وصرخت بصوت عال، وهذا لم يحدث معها من قبل.

ـ انتظريني يا حبيبة ماما.

صدر للكاتب

مجموعات قصصية

١ ـ الضحى العالي ١٩٨٥ ـ دار شهدي ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٠ (مكتبة الأسرة).

٢ ـ عكس الريح ١٩٨٧ ـ هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية ٢٠٠١ (مكتبة الأسرة).

٣ ـ وش الفجر ١٩٩٣ ـ هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٢ (مكتبة الأسرة).

٤ ـ ترنيمة للدار ١٩٩٥ ـ هيئة قصور الثقافة.

٥ ـ طلل النار ـ ١٩٩٧ ـ هيئة قصور الثقافة.

٦ ـ شتاء العُري ـ ٢٠٠٣ ـ دار ميريت.

روايات

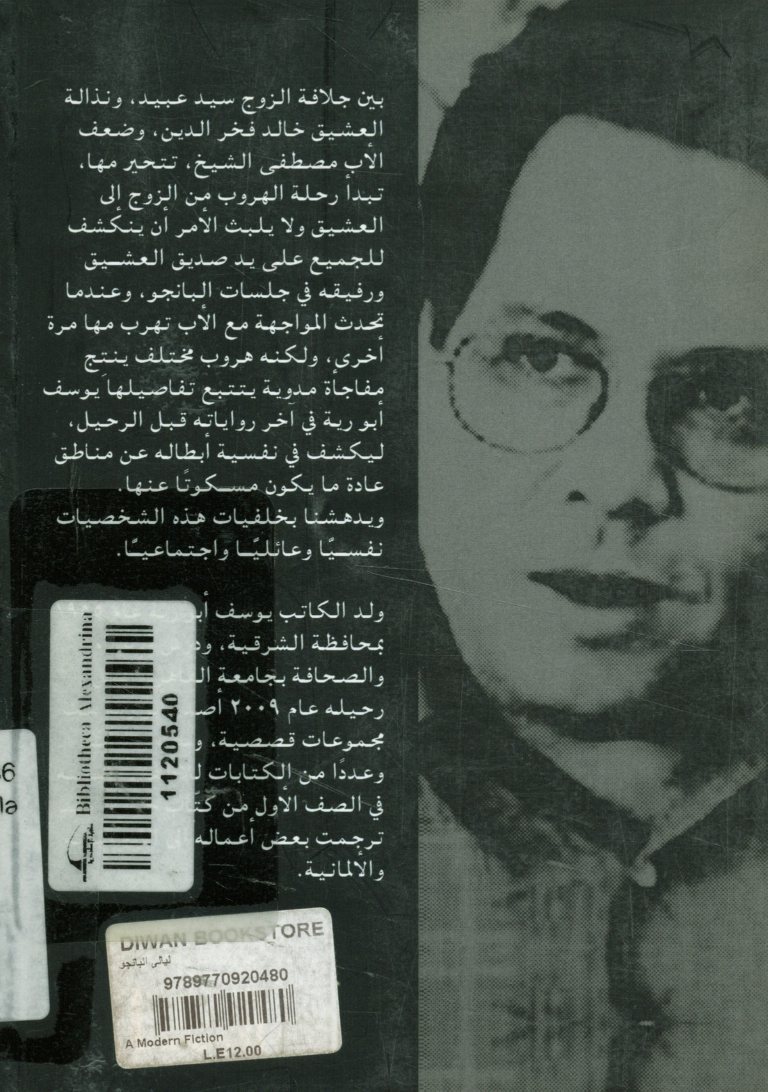
١ ـ عطش الصبار ـ دار الهلال ١٩٨٩ ـ الطبعة الثانية ١٩٩٩ (مكتبة الأسرة).

٢ ـ تل الهوى ـ دار الهلال ١٩٩٩ ـ الطبعة الثانية ٢٠٠٤ (مكتبة الأسرة).

٣ـالجزيرة البيضاء ـالمجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠ ـالطبعة الثانية ٢٠٠٢.
٤ ـليلة عرس ـدار الهلال ٢٠٠٢ ـالطبعة الثانية ٢٠٠٣ (مكتبة الأسرة).
ـ الطبعة الثالثة ٢٠٠٦ (مكتبة مدبولي).
٥ ـ عاشق الحي ـ دار الهلال ٢٠٠٥.
٦ ـ صمت الطواحين ـ دار العين ٢٠٠٦.

كتابات للأطفال

١ ـ خبز الصغار ـ دار الفتى العربي ١٩٨٨.
٢ ـ أسد السيرك ـ دار الفتى العربي ١٩٨٩.
٣ ـ طفولة الكلمات ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٥.
٤ ـ الأيام الأخيرة للجمل ـ دار هوبو ١٩٩٨.
٥ ـ هكذا تكلمت الأشياء ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٤.
٦ ـ الورد جميل ـ مطبوعات العربي الصغير ٢٠٠٣.
٧ ـ مغامرات ماركو بولو ـ دار الهلال ٢٠٠٥.



بين جلافة الزوج سيد عبيد، ونذالة العشيق خالد فخر الدين، وضعف الأب مصطفى الشيخ، تتحير مها، تبدأ رحلة الهروب من الزوج إلى العشيق ولا يلبث الأمر أن ينكشف للجميع على يد صديق العشيق ورفيقه في جلسات البانجو، وعندما تحدث المواجهة مع الأب تهرب مها مرة أخرى، ولكنه هروب مختلف ينتج مفاجأة مدوية يتتبع تفاصيلها يوسف أبو رية في آخر رواياته قبل الرحيل، ليكشف في نفسية أبطاله عن مناطق عادة ما يكون مسكوتًا عنها. ويدهشنا بخلفيات هذه الشخصيات نفسيًا وعائليًا واجتماعيًا.

ولد الكاتب يوسف أبو
بمحافظة الشرقية، و
والصحافة بجامعة ال
رحيله عام ٢٠٠٩ أص
مجموعات قصصية، و
وعددًا من الكتابات ل
في الصف الأول من كتّا
ترجمت بعض أعماله
والألمانية.